www.ibtesama.com

رِحْلَةٌ إِلَى الدَّارِ الآخِرَةِ

يحتوي على قصة المهدي المنتظر والمسيح الدجال

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

جمع وترتيب
مَحْمُودُ المِصْرِيّ
أَبُو عَمَّار

مَكْتَبَةُ الصَّفَا

www.ibtesama.com

رِحْلَةٌ إِلَى
الدَّارِ الآخِرَةِ

يحتوي على قصة المهدي المنتظر والمسيح الدجال

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

جمع وترتيب
محمود المصري
أبو عمار

مكتبة الصفا

www.ibtesama.com

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة
للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/٢٠٩٤٣

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

مكتبة الصفا

مطابع دار الرشيد الحديثة
تليفاكس: ٢٩٩٩٥٦٦

١٢٧ شارع الأزهر - القاهرة ت: ٥١٤٧٣٢٠
١ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر ت: ٥١٤٧٩٧٤/٠١٠١٤٣١١١٤

www.ibtesama.com

بين يدى الكتاب

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى مِنْ شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَنْ يهده اللهُ فلا مُضل له، ومنْ يضلل فلا هادىَ له، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:١٠٢).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء:١).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب:٧٠، ٧١).

* الحمد لله الذى قصم بالموت رقاب الجبابرة، وكسر به ظهور الأكاسرة، وقصّر به آمال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة، حتى جاءهم الوعد بالحق فأرداهم فى الحافرة، فنُقلوا من القصور إلى القبور، ومن ضياء المهود إلى ظُلمة اللحود، ومن ملاعبة الجوارى والغلمان إلى مقاساة الهوامّ والديدان، ومن التنعم بالطعام والشراب إلى التمرغ فى الوحل والتراب، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل. فانظر هل وجدوا من الموت حصنًا وعزًا، واتخذوا من دونه حجابًا وحرزًا، وانظر: ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ (مريم:٩٨).

فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء، واستأثر بالملك والبقاء، وأذلّ أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء، ثم جعل الموت مخلِّصًا للأتقياء، وموعدًا فى حقهم للقاء، وجعل القبر سجنًا للأشقياء وحبسًا ضيقًا عليهم إلى يوم الفصل والقضاء، فله الإنعام بالنعم المتظاهرة، وله الانتقام بالنقم القاهرة، وله الشكر فى السموات والأرض وله الحمد فى الأولى والآخرة، وصلى الله على رسوله محمد ذى المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة، وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

www.ibtesama.com

• **أما بعد**، فجدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقرّه، وبطن الأرض مستقرّه، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده، أن لا يكون له فكر إلا فى الموت، ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلاّ لأجله، ولا تدبير إلا فيه، ولا تطلّع إلا إليه، ولا تعريج إلا عليه، ولا اهتمام إلا به، ولا حول إلا حوله، ولا انتظار ولا تربص إلا له، وحقيق بأن يعدّ نفسه من الموتى، ويراها فى أصحاب القبور، فإن كل ما هو آت قريب، والبعيد ما ليس بآت»[1].

مشيناهـا خُطًا كُتبت علينا ... ومن كُتبت عليه خُطًا مشاهـا

وأرزاق لنـا متفرقـات ... فمن لم تأته منا أتاهـا

ومن كُتبت منيتـه بأرضٍ ... فليس يموت فى أرض سواها

* إن هذا الامتداد الإنسانى المتلاحق سيتوقف يومًا، سيأتى اليوم الذى ينتهى فيه الوجود الإنسانى كله، بل سَيُدَمَّر فيه الكون كله، فتنطفىء نجوم الليل جميعًا، وتتوقف أمواج البحر، ويبس الزرع كله، وتجف مياه الأنهار والعيون.

ولكن هذا الفناء ليس هو النهاية، بل هو مرحلة فى الأطوار التى يمر الإنسان بها، وسيأتى يوم نعود جميعًا فيه إلى الحياة، لنحاسَب على ما قدمنا وعملنا.

إن الإيمان بالرجعة إلى الحياة، ثم الخلود بعد ذلك ضرورى لتقويم مسار الإنسان،فالإنسان مركوز فى أعماق نفسه حب الخلود والبقاء، ولذا فإن إبليس أغرى آدم بالأكل من الشجرة المحرم عليه الأكل منها مدعيًا أن الأكل منها يمنحه وزوجه الخلود ﴿قَالَ يا آدم هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلك لا يَبْلَى﴾.

والكفر بالبعث والنشور يُحدث شقوة للنفوس البشرية، كما يُحدث انحرافًا فى مسيرة البشر فى الحياة.

ولما كان الارتباط بين حياتنا هذه وحياتنا الأخرى وثيقًا، إذ كانت هذه الحياة بمثابة الحرث والزرع، وكانت تلك بمثابة الجنى والحصاد، كان لا بد للإنسان من أن يعلم عن حياته الآخرة ما يدعوه للاستعداد لها، وإقامة حياته الدنيا على النمط الذى يحقق له فى الآخرة خيرًا وفضلاً.

ولما كانت الحياة الأخرى غيب لا يستطيع أصحاب العقول الثاقبة، والقلوب المبصرة

---

(١) «إحياء علوم الدين» للغزالى (٤/ ٤٧٥).

www.ibtesama.com

اختراق حُجبها فضلاً عمن هم دونهم، فإن الله تولى إخبارهم عن مسارهم فى رحلتهم بعد الحياة، وعن مصيرهم المحتوم، ومزج الحديث عن الحياة الأخرى بالحديث عن هذه الحياة مزجًا يجعلهما متداخلتين، تحقيقًا لإصلاح النفوس وتقويمها[١].

فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا وأرواحنا مع أعظم رحلة فى الوجود كله ـ رحلة إلى الدار الآخرة ـ لنعلم كل مرحلة من مراحل تلك الرحلة ولنتزود بالزاد الحقيقى الذى يجعل تلك الرحلة هى رحلة السعادة والنعيم والخلود.

تزود من الدنيا فإنك لا تدرى ... إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجرِ
فكم من عروس زينوها لزوجها ... وقد أُخذت أرواحهم ليلة القدرِ
وكم من صغار يُرجى طول عمرهم ... وقد أُدخلت أرواحهم ظلمة القبرِ
وكم من سليم مات من غير علة ... وكم من سقيم عاش حينًا من الدهرِ
وكم من فتى يمسى ويصبح لاهيًا ... وقد نُسجت أكفانه وهو لا يدرى
وكم من ساكنٍ عند الصباح بقصره ... وعند المسا قد كان من ساكن القبرِ
فكن مخلصا واعمل الخير دائما ... لعلك تحظى بالمثوبة والأجرِ
وداوم على تقوى الإله فإنها ... أمان من الأهوال فى موقف الحشرِ

ولقد حرصت كل الحرص على أن أجمع بين ثنايا هذا الكتاب كل الأحاديث الصحيحة والحسنة الثابتة عن الصادق المصدوق ﷺ... سائلاً ربى (عز وجل) أن ينفع بهذا الكتاب كل من رام الانتفاع به وأن يجعله حاديًا لنا للسير فى طريق أهل الإيمان الذين ترتقى قلوبهم إلى درجة الإحسان وترتقى أرواحهم وأجسادهم إلى النعيم فى الجنان والفوز بالرضوان فى جنة الرحمن التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتبه أفقر خلق الله إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصرى

(أبو عمار)

---

(١) القيامة الصغرى/ د. عمر الأشقر (ص: ٥: ٧) بتصرف.

www.ibtesama.com

• المراد باليوم الآخر •

إن المراد من اليوم الآخر أمران: الأول: فناء هذه العوالم كلها، وانتهاء هذه الحياة بكاملها. والثانى: إقبال الحياة الآخرة وابتداؤها، فدل لفظ اليوم الآخر على آخر يوم من أيام هذه الحياة وعلى اليوم الأول والأخير من الحياة الثانية، إذ هو يوم واحد لا ثانى له فيها البتة. فالإيمان باليوم الآخر مقتض للتصديق بأخبار الله تعالى بفناء هذه الحياة الدنيا، وبما يسبقه من أمارات وما يتم فيه من أهوال، واختلاف أحوال كما هو مقتض كذلك لتصديق الله تعالى فى إخباره عن الحياة الآخرة، وما فيها من نعيم وعذاب، وما يجرى فيها من أمور عظام، كبعث الخلائق، وحشرهم وحسابهم، ومجازاتهم على أعمالهم الارادية الاختيارية التى قاموا بها فى هذه الحياة الدنيا[1].

• وجوب الإيمان باليوم الآخر •

إن الإيمان باليوم الآخر هو عبارة عن التصديق الجازم بانقلاب هائل يتم فى الكون، ويكون انتهاء هذه الحياة الدنيا بكاملها، وابتداء حياة أخرى وهى الدار الآخرة بكل ما فيها من حقائق مدهشة، من بعث الخلائق وحشرهم، وحسابهم، ومجازاتهم.

هذا الإيمان ليس واجبًا فحسب بل هو أحد أركان ستة عليها تُبنى عقيدة المؤمن، فلا تتم إذًا عقيدته إلا به، ولا تصح إلا عليه.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ (البقرة:١٧٧).

ولأهمية هذا المعتقد فى حياة المؤمن، ولآثاره الكبرى فى استقامة الفرد وصلاحه عنى القرآن الكريم به عناية لا تقل عن العناية بالإيمان بالله سبحانه وتعالى، فقد ذكره فى عشرات السور منه، وفى مئات الآيات، مرة بوصفه، والحديث عنه كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (الحاقه:١٣:١٨).

---

(١) عقيدة المؤمن/ الشيخ أبو بكر الجزائرى (ص: ٣٢١).

www.ibtesama.com

ومرة تقريره، وتأكيد مجيئه، كقوله تعالى من سورة الحج: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ (الحج:٦:٧).

وقوله تعالى: من سورة التغابن ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (التغابن:٧).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (النساء:٣٨).

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (النساء:٥٩).

فى عدة آيات من كتاب الله تعالى.

فدلت هذه العناية القرآنية بهذين الركنين من أركان الإيمان على أنهما قوام حياة الروح، وعليهما مدار استقامة المرء فى هذه الحياة، وأن الإيمان بدونهما ليس شيئًا، وأن مَن عدمهما قد عدم كل خير، وأن من افتقدهما فقد افتقد كل عناصر الخير والفضيلة فى نفسه وأصبح من شر البرية.

وبالجملة فإن معتقد الإيمان بالله واليوم الآخر هو رأس كل عقيدة، وأساس كل إيمان، وعليه مدار استقامة الإنسان، وصلاح خُلقه، وطهارة روحه، وبدونه فالإنسان مخلوق لا خير فيه لا لنفسه، ولا لغيره، وهو شر كله، لا يؤمَن جانبه، ولا يُطمأن إليه، ولا تسكن النفوس عنده، وذلك لما انعدم عنده من أصول الخير، وينابيع الفضيلة والكمال البشرى(١).

• الاستعداد ليوم الرحيل •

يقول الإمام ابن الجوزى ـ رحمه الله ـ: يجب على مَن لا يدرى متى يبغته الموت أن يكون مستعدًا، ولا يغتر بالشباب والصحة، فإن أقل مَن يموت الأشياخ، وأكثر مَن يموت الشبان، ولهذا يندر مَن يكبر، فالحذر الحذر من المعاصى. فإن عواقبها سيئة، فكم من معصية لا يزال صاحبها فى هبوط أبدًا من تعثير أقدامه، وشدة فقره وحسراته على ما يفوته من الدنيا(٢).

(١) بتصرف من عقيدة المؤمن.

(٢) صيد الخاطر للإمام ابن الجوزى (ص: ٢٠٥ ـ ٢٠٦) بتصرف.

www.ibtesama.com

ولقد قال ﷺ: «اغتنم خمسًا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك»(١).

وقال عمر رضى الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، وتجهزوا للعرض على الله ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (الحاقة:١٨).

ولذلك فإن على كل مسلمٍ أن يقف مع نفسه وقفة يحاسبها فى الدنيا على كل فعلة فعلها وعلى كل كلمة قالها، فإن من حاسب نفسه فى الدنيا خفَّ عليه الحساب فى الآخرة.

• كلمات على فراش الموت •

ولقد كان سلفنا الصالح يحاسبون أنفسهم حتى عند سكرات الموت!!!... فلنتأمل سويًا تلك الكلمات.

قيل لعبد الملك بن مروان فى مرضه الذى مات فيه: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: أجدنى كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (الأنعام:٩٤). ثم مات.

ولما حضرت معاذًا رضى الله عنه الوفاة قال: اللهم إنى كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك. اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالرُكب عند حلق الذكر.

ولما حضرت بلالاً الوفاة قالت امرأته: واحزناه. فقال: بل واطرباه غدًا نلقى الأحبة محمدًا وحزبه.

وحُكى أن هارون الرشيد انتقى أكفانه بيده عند الموت، وكان ينظر إليها ويقول: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ (الحاقة:٢٨:٢٩).

---

(١) رواه الحاكم والبيهقى عن ابن عباس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٧٧).

www.ibtesama.com

هكذا كانوا يرون الحقيقة الكبرى (الموت) واضحة جلية جلاء الشمس فى رابعة النهار.

ـ بل هذا الإمام ابن الجوزى يبكى عند الموت فيقول له تلاميذه: يا إمام ألست قد فعلت كذا وكذا؟! فقال: والله إننى أخشى أن أكون فرّطت ونافقت فيحقّ علىَّ قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الزمر:٤٧، ٤٨).

ثم قال: ولقد تاب على يدىّ فى مجالس الذكر أكثر من مائتى ألف. وأسلم على يدىّ أكثر من مائتى نفس.

وكم سالت عين متجبر بوعظى لم تكن تسيل. ويحق لمن تلمح هذا الإنعام أن يرجو التمام.

وربما لاحت أسباب الخوف بنظرى إلى تقصيرى وزللى.

ولقد جلست يومًا فرأيت حولى أكثر من عشرة آلاف ما فيهم إلا مَن قَدْ رَقَّ قلبه، أو دمعت عينه، فقلت لنفسى: كيف بك إن نَجَوْا وهلكت: فصحت بلسان وجدى: إلهى وسيدى إن قضيت علىّ بالعذاب غدًا فلا تعلمهم بعذابى، صيانة لكرمك لا لأجلى، لئلا يقولوا عذّب الله من دلّ عليه[1].

• سلفنا الصالح والاستعداد للآخرة •

لقد ضرب سلفنا الصالح المثل الأعظم فى الاستعداد للآخرة بالعمل الصالح بكل أنواعه، سواءً كان من أعمال القلوب أو الألسنة أو الجوارح.. فلم يتركوا بابًا من أبواب الخير إلا وكانوا يتسابقون إلى الدخول منه، ولم يتركوا بابًا من أبواب الشر إلا وكانوا يحذرون منه ومن الدخول فيه.. وكل ذلك لأنهم امتثلوا قول الحق جل وعلا: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى

(١) صيد الخاطر: (ص: ٢٤٩).

www.ibtesama.com

مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (آل عمران:١٣٣:١٣٦).

* وكان استعدادهم للقاء الله لا يتوقف عند بعض الكلمات التى تخرج من الأفواه وليس لها رصيد من العبودية فى القلوب، بل كانت جوانحهم وجوارحهم تنقاد طوعًا أو كرهًا لطاعة الله ولسان حال كل واحد منهم: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ (طه:٨٤).

* فتجد أنهم يخلصون العمل لله؛ لأنهم قرأوا قوله تعالى: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ (الزمر:٣).

وقول النبى ﷺ:«إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتغى به وجهه»(١).

وكان إبراهيم التيمى يقول: المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته، وكان الشعبى رحمه الله يقول: من أدب العلماء إذا علموا أن يعملوا، فإذا عملوا شُغلوا بذلك عن الناس، فإذا شُغلوا فُقدوا، وإذا فُقدوا طُلبوا، وإذا طُلبوا هربوا، خوفًا على دينهم من الفتن.

* وكانوا دائمًا يؤثرون ويقدمون أعمال الآخرة على كل مصالحهم الدنيوية؛ لأن قلوبهم أيقنت وأذعنت لقول الله جل وعلا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَـٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ (الإسراء:١٨، ١٩).

قال ﷺ: «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه، وجمع له شمله وأتته الدنيا وهى راغمة، ومن كانت الدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرّق شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له»(٢).

وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: «من خطب الدنيا طلبت منه دينه كله فى صداقها، لا يرضيها منه إلا ذلك».

وقال علىّ رضى الله عنه: ارتحلت الآخرة مقبلة، وارتحلت الدنيا مدبرة، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل.

---

(١) رواه النسائى (٦/ ٢٥) كتاب الجهاد، وحسنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٥٢).

(٢) رواه الترمذى عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥١٠).

www.ibtesama.com

* ومع ذلك كانوا يخافون من التقصير.. وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء:٤٧). وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحشر:١٨).

* وكانوا يشعرون مع كل هذا بأن أعمالهم ضئيلة لا تصلح أن يقفوا بها بين يدى الله جل وعلا وذلك لأنهم يعلمون أن النبى ﷺ قال: «لو أن رجلاً يُجر على وجهه من يوم وُلد إلى يوم يموت هرمًا فى مرضاة الله عز وجل لحقَّره يوم القيامة»(١).

* وكل ذلك جعل قلوبهم رقيقة ودموعهم غزيرة من خشية الله تعالى.

كان لعمر بن الخطاب فى وجهه خطان أسودان من كثرة الدموع. وكان ابن عباس رضى الله عنهما أسفل عينيه مثل الشراك البالى من كثرة البكاء.

وقال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا» فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين(٢).

وقال علىّ رضى الله عنه: رأيت أصحاب رسول الله ﷺ فلم أر اليوم شيئًا يشبههم، كانوا يصبحون شعثًا صفرًا غبرًا، بين أعينهم أمثال رُكَب الماعز، قد باتوا سجدًا وقيامًا، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا تمادوا كما يميد الشجر يوم الريح، وهملت أعينهم بالدموع، فو الله لكأنى بالقوم باتوا غافلين.

* وكان الواحد منهم إذا وقع فى ذنب فإنه يسارع بالتوبة والعودة إلى الله جل وعلا. قال تعالى ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور:٣١).

سُئل سفيان بن عيينة ـ رحمه الله ـ: ما علامة التوبة النصوح؟ فقال: أربعة أشياء: قلة الدنيا وذلة النفس، وكثرة التقرب إلى الله تعالى بالطاعات ورؤية القلة والنقص فى ذلك.

وكان عمر رضى الله عنه يقول: جالسوا التوابين فإنهم أرقّ أفئدة.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٥) والبخارى فى «التاريخ الكبير» وقال الألبانى فى السلسلة الصحيحة: وهذا إسناد جيد.

(٢) أخرجه البخارى (١١/ ٣١٩) الرقاق.

www.ibtesama.com

* وكانوا يخافون من الرياء وغيره من الآفات التى تُبطل الأعمال، فكان الواحد منهم يُخفى عمله عن أخيه، بل عن زوجته وأولاده خشية أن يحبط عمله بالرياء وغيره.

كان أبو حازم رحمه الله تعالى يقول: قد رضى علماء زماننا هذا بالكلام وتركوا العمل. وقد كان السلف رضى الله عنهم يفعلون ولا يقولون، ثم صار الذين بعدهم يفعلون ويقولون، ثم صار الذين بعدهم يقولون ولا يفعلون، وسيأتى زمان أهله لا يقولون ولا يفعلون.

بل لقد طلب الناس من سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى أن يجلس يحدثهم فَأَبَى وقال: ما أنا بأهل أن أحدث ولا أنتم بأهل أن تسمعوا، وما مثلى ومثلكم إلا كما قال القائل: افتضحوا فاصطلحوا.

* وكانوا يخافون من مظالم العباد خوفًا شديدًا؛ لأنهم يعلمون أن النبى ﷺ قال: «من كانت لأخيه عنده مظلمة من عِرض أو مال فليتحلله اليوم قبل أن يؤخذ منه يوم لا دينار ولا درهم، فإن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له عمل أُخذ من سيئات صاحبه فجُعلت عليه»(١).

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إن المفلس من أمتى يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة؛ ويأتى قد شتم هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا، فَيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه ثم طُرح فى النار»(٢).

* وكانوا يخافون من التقصير فى شكرهم لله ـ جل وعلا ـ قال تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم:٣٤).

وكان مجاهد ومكحول رحمهما الله تعالى يقولان فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر:٨) إنه الشراب البارد وظل المساكن، وشبع البطن، واعتدال الخلق، ولذة النوم.

وكان سهل التسترى رحمه الله تعالى يقول: أداء الشكر لله تعالى أنك لا تعصيه

(١) أخرجه البخارى (٥/ ١٠١) المظالم، وأحمد عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٦٥١١).
(٢) رواه مسلم (١٦/ ١٣٦) البر والصلة.

www.ibtesama.com

بنعمه عليك، فإن جوارحك كلها من نعمه عليك فلا تعصه بشيءٍ منها.

* ولذلك امتن الله عليهم ورزقهم بنعمة التقوى التى لا توازيها الدنيا بما فيها.

كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقول: «لا يبلغ أحدٌ مقام التقوى حتى لا يكون له فعل ولا قول يفتضح به فى الدنيا والآخرة، وقد قال له رجل مَرة: متى يبلغ العبد سنام التقوى؟ فقال: إذ وضع جميع ما فى قلبه من الخواطر فى طبق، وطاف به فى السوق لم يستح من شيءٍ فيه.

وقال رجلٌ للفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: أى البلاد تحب لى أن أقيم فيه؟ فقال: ليس بينك وبين بلد نسب، بل خير البلاد ما حملك على التقوى.

* وكانوا يخافون ربهم خوفا عظيما ويرجون ثواب هذا الخوف، فقد قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن:٤٦). وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات:٤٠:٤١).

وقال ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»(١).

وقد قيل للشعبى رحمه الله تعالى مرة: أَفْتِنَا أيها العالم، فقال: لا تقولوا لمثلى عالم، فإن العالم هو الذى تقطعت مفاصله من خشيةَ الله.

وكان علىّ بن الحسين إذا توضأ اصفر، فيقال له: ما هذا الذى يعتريك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدى مَن أريد أن أقوم.

* وكانوا يخافون من سوء الخاتمة ويهتمون بأمر الموت اهتمامًا عظيمًا.

فعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك»، فقلت: يا نبى الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء»(٢).

وقال ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»(٣).

---

(١) رواه الترمذى وأبو نعيم والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٢٢).

(٢) رواه الترمذى والحاكم عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٨٧).

(٣) رواه البخارى (٦/ ٣٠٣) بدء الخلق ـ ومسلم (١٦/ ١٩٠) القدر.

www.ibtesama.com

وكان أبو هريرة رضى الله عنه إذا رأى أحداً يحمل جنازة يقول لها: امض إلى ربك فَإنَّا على إثرك مَاضُون.

وكان مكحول الدمشقى يقول إذا رأى جنازة: اغدوا فإنَّا رائِحونُ، موعظة بليغة قليلة، وغفلة شنيعة، يذهب الأول والآخر لا يعتبر.

وكان ثابت يقول: كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متلفعًا باكيًا. وذلك لأنهم كانوا يتذكرون جنازة أنفسهم، فلا يبكون على الميت، ولكن على أنفسهم.

فجدير بمن الموت مصرعه، والقبر مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقره، وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده، ألا يكون له فكر إلا فى ذلك، ولا استعداد إلا له.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾ (فصلت:٣٠).

قال بعض السلف: إنما تقول الملائكة ذلك لمن طال خوفه من الله عز وجل وحزنه مما فرط منه، أما من لم يخف الله عز وجل ولم يحزن على ما فاته من الخير فلا يقال له شىء من ذلك[١].

أخى الكريم.. أختى الفاضلة: كانت تلك بعض أحوال سلفنا الصالح ـ رضى الله عنهم ـ مع الاستعداد للقاء الله بالطاعة والحب والخوف والرجاء ومحاسبة النفس، فتلك هى مؤهلات النجاة فى ذلك اليوم الذى يشيب لهوله الولدان.

فنسأل الله أن يتغمدنا بعفوه ومغفرته ورحمته

* * *

(١) مستفاد من رسالة (من أخلاق السلف) لأحمد فريد.

www.ibtesama.com

طول الأمل... والغفلة عن الآخرة

قال ﷺ: «يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان: الحرص والأمل»(١).

وقال ﷺ: «يهرم ابن آدم ويشبُّ فيه اثنتان: الحرص على المال والحرص على العمر»(٢).

إلام تُغر بالأمل الطويل ... وليس إلى الإقامة من سبيلِ

فدع عنك التعلل بالأمانى ... فما بعد المشيب سوى الرحيل

أتأمن أن تدوم على الليالى ... وكم أفنيْنَ قبلك من خليل

وما زالت بنات الدهر تُفنى ... بنى الأيام جيلاً بعد جيلِ

• **قال بعض الحكماء:** عجبت ممن يحزن على نقصان ماله ولا يحزن على فناء عمره، وعجبت من الدنيا مولية عنه والآخرة مقبلة عليه يشتغل بالمدبرة ويعرض عن المقبلة.

• **وقال أحد الزهاد:** كونوا من الله على حذر، ومن دنياكم على خطر، ومن الموت على وجل، ولقدوم الآخرة على عجل.

• **وقال أبو الدرداء:** ابن آدم طأ الأرض بقدمك؛ فإنها عن قليلٍ قبرك، ابن آدم إنما أنت أيام فكلما ذهب يوم ذهب بعضك، ابن آدم إنك لم تزل فى هدم عمرك منذ يوم ولدتك أمك(٣).

* * *

(١) أخرجه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى عن أنس.

(٢) أخرجه مسلم والترمذى وابن ماجه عن أنس.

(٣) الزهد الكبير (ص: ٢٣٣).

www.ibtesama.com

• نعوذ بالله من طول الأمل •

جميل أن نحمل فى قلوبنا أملاً، لكى نعمِّر الكون بكل أنواع الخير، فالإنسان مفطور على حُب الحياة.. لكن لابد أن نحذر من أن يحول طول الأمل بيننا وبين طاعة الله عز وجل.

فإن صاحب الأمل الطويل فى الدنيا يركن غالبًا إلى الشهوات والملذات، ولذلك نجد قلبه لا يتحرك لآيات الله وكلام رسول الله ﷺ. ومن أجل ذلك حذَّر النبى ﷺ من طول الأمل.

فعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال: «كُن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخُذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك... زاد أحمد والترمذى: «وعدَّ نفسك من أهل القبور»[١].

ولقد قال تعالى عن هذا الصنف: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الحجر:٣).

قال الإمام القرطبى: وطول الأمل داء عُضال ومرض مزمن ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه واشتد علاجه ولم يفارقه داء ولا نجح فيه دواء، بل أعيا الأطباء ويئس من برئه الحكماء والعلماء.

وحقيقة الأمل: الحرص على الدنيا والانكباب عليها، والحب لها والإعراض عن الآخرة.. ولذا قال رسول الله ﷺ: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل»[٢].

ويُروى عن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه قام على درج مسجد دمشق فقال: يا أهل دمشق، ألا تسمعون من أخٍ لكم ناصح؟! إنّ من كان قبلكم كانوا يجمعون كثرًا ويبنون مشيدًا ويأملون بعيدًا، فأصبح جمعهم بُورًا وبنيانهم قبورًا وأملهم غرورًا. هذه عاد قد

---

(١) رواه البخارى وأحمد والترمذى وابن ماجه عن ابن عمر ـ صحيح الجامع (٤٥٧٩).

(٢) رواه أحمد فى الزهد والطبرانى فى الكبير والبيهقى عن ابن عمرو، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٨٤٥).

www.ibtesama.com

ملأت البلاد أهلاً ومالاً وخيلاً ورجالاً. فمن يشترى منى اليوم تركتهم بدرهمين! وأنشد:

يا ذا المؤمل آمالاً وإن بَعُدت ... منه ويزعم أن يحظى بأقصاها

أنَّى تفوز بما ترجوه ويْكَ وما ... أصبحت فى ثقة من نَيْل أدناها

وقال الحسن: ما أطال عبدٌ الأمل إلا أساء العمل، وصدق رضى الله عنه! فالأمل يكسل عن العمل ويورث التراخى والتوانى، ويعقب التشاغل والتقاعس، ويخلد إلى الأرض ويميل إلى الهوى. وهذا أمر قد شوهد بالعيان فلا يحتاج إلى بيان ولا يُطلَب صاحبه ببرهان؛ كما أن قصر الأمل يبعث على العمل، ويُحيل على المبادرة، ويحثّ على المسابقة[١].

وقال علىّ ـ رضى الله عنه ـ: إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسى الآخرة.

وجاء فى الأثر: أربعة من الشقاء: جمود العين، وقسوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا[٢].

* أقام معروف الصلاة، ثم قال لمحمد بن أبى توبة: تقدَّم، فقال: إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها، فقال معروف: وأنت تحدث نفسك أن تصلى صلاة أخرى، نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع خير العمل[٣].

* وقيل لإبراهيم بن عيسى اليشكرى كيف أصبحت؟ فقال: «أصبحت فى أجل منقوص وعمل محفوظ والموت فى رقابنا والقيامة من ورائنا ولا ندرى ما يفعل الله بنا»[٤].

* وعن سلمة بن بشير أن أبا هريرة رضى الله عنه بكى فى مرضه فقيل: ما يبكيك؟ فقال: أبكى لبعد سفرى، وقلة زادى وأنى أصبحت فى صعود مهبطه على جنة أو نار فلا أدرى إلى أيتها يسلك بى»[٥].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى (١٠/ ٧ ـ ٨) ط. دار الحديث.

(٢) أخناه إنما أنت أيام/ للمصنف (ص: ٥٣: ٥٦).

(٣) الزهد الكبير (ص: ٢٣٨).

(٤) الزهد الكبير (ص: ٢٤٩).

(٥) الزهد الكبير (ص: ٢٤٨).

www.ibtesama.com

* وقال حاتم: ما من صباح إلا والشيطان يقول لى: ما تأكل وما تلبس، وأين تسكن؟ فأقول: آكل الموت وألبس الكفن، وأسكن القبر، قال ـ رحمه الله ـ: الزم خدمة مولاك تأتيك الدنيا راغمة، والجنة عاشقة.

* قالت رابعة زوجة أحمد بن أبى الحوارى: ما رأيت ثلجًا قط إلا ذكرت تطاير الصحف، ولا رأيت جرادًا قط إلا ذكرت الحشر، ولا سمعت أذانًا قط إلا ذكرت منادى القيامة، قالت: وقلت لنفسى: كونى فى الدنيا بمنزلة الطير الواقع حتى يأتيك قضاءه.

* وقال الحسن: حقيقٌ على من كان الموت موعده، والقبر مورده والحساب مشهده، أن يطول بكاؤه وحزنه.

* وقال الفضيل بن عياض: كفى بالله محبًا وبالقرآن مؤنسًا وبالموت واعظًا وكفى بخشية الله علمًا والاغترار بالله جهلاً.

* نظر الحسن إلى ميت يُدفن فقال: والله إن أمرًا هذا أوله لحرى أن يخاف آخره، وإن أمرًا هذا آخره لحرى أن يزهد فى أوله.

* وقال ابن عيينة: أوحش ما يكون ابن آدم فى ثلاثة مواطن: فى يوم ولد فيخرج إلى دارهم، وليلة يبيت مع الموتى فيجاور جيرانًا لم ير مثلهم، ويوم يُبعث فيشهد مشهدًا لم ير مثله قط، قال الله تعالى ليحيى بن زكريا فى هذه المواطن: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم:١٥)[١].

* وكانت إحدى العابدات إذا أصبحت قالت: يا نفس هذا اليوم ساعدينى يومى هذا فلعلك لا ترين بياض يوم أبدًا، وإذا أمست، قالت: يا نفس هذه الليلة ساعدينى ليلتى هذه فلعلك لا ترين سواد ليلة أبدًا فما زالت تخدع وتدفع يومها بليلها وليلها بنهارها حتى ماتت على ذلك[٢].

* وقالوا للفضيل بن عياض: يا أبا على كم سنك؟ فقال:

بلغت الثمانين أو جزتها ... فماذا أؤمل أو أنتظر

أتت لى ثمانون من مولدى ... ودون الثمانين ما يعتبر

علتنى السنون فأبلينى ... فرقَّت عظامى وكلَّ البصر

(١، ٢) الزهد الكبير (ص: ٢٥٤).

www.ibtesama.com

* وكان الحسن إذا أمسى يقول:

وما الدنيا بباقية لحى وما حيّ على الدنيا بباق

• اغتنم خمسا قبل خمسٍ •

* عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه:

«اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هَرَمك، وصحتكَ قبل سُقمِك، وغناكَ قبل فَقْرِك، وفَراغك قبل شُغلِك، وحياتك قبل موتك»(١).

* وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»(٢).

* وأنشد أبو عبد الله بن أيوب:

اغتنم فى الفراغ فَضْلَ ركوعٍ فعسى أن يكون موتك بَغْتَهْ

كم صحيح رأيت من غير سقمٍ ذهبتْ نفسهُ الصحيحة فَلْتَه(٣)

* وعن ميمون بن مهران أنه قال: دخلتُ على عمر بن عبد العزيز يومًا وعنده سابق البربرى الشاعر وهو ينشد شعرًا، فانتهى بشعره إلى هذه الأبيات:

وكم من صحيحٍ باتَ للموت آمنًا أتته المنايا بغتةً بعدما هجعْ

ولم يستطع إذ جاءه الموت بغتةً فرارًا ولا منه بقوَّته امتَنَعْ

فأصبح تبكيه النساء مقنَّعًا ولا يسمعُ الداعى وإن صوتَه رفَعْ

وقُرِّب من لحد صار مقيلَهُ وفارق ما قد كان بالأمس قد جَمَعْ

ولا يترك الموتُ الغنىَّ لماله ولا مُعْدَمًا فى الحال ذا حاجة يَدَعْ

قال: فلم يزل عمر رضى الله عنه يبكى ويضطرب، حتى غُشى عليه(٤).

* وعن صالح بن موسى الطلحى عن أبيه قال: اجتهد الأشعرى قبل موته اجتهادًا

---

(١) رواه الحاكم والبيهقى عن ابن عباس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٧٧).

(٢) أخرجه البخارى/ كتاب الرقاق ـ باب: الصحة والفراغ.

(٣) الزهد الكبير/ للبيهقى (ص: ٢٣٥)..

(٤) الزهد الكبير (ص: ٢٦٣).

www.ibtesama.com

شديداً، فقيل له: لو أمسكت أو رفقتَ بنفسك بعض الرفق؟

فقال: إن الخيلِ إذا أُرسلت فقاربتْ رأسَ مجراها، أخرجتْ جميعَ ما عندها، والذى بقى من أجَلى أقلُّ من ذلك!.

قال: فلم يزل على ذلك حتى مات[١].

* وكان الحسن يقول فى موعظته: المبادرة عبادة، المبادرة! فإنما هى الأنفاس، لو قد حُبست انقطعت عنكم أعمالكم التى تقرَّبون بها إلى الله عز وجل.

رحم الله امرءًا نظر لنفسه، وبكى على ذنوبه! ثم قرأ هذه الآية:

﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ .

ثم يبكى ويقول: آخر العدد خروجُ نفسك... آخر العدد فراق أهلك.

آخر العدد دخولك فى قبرك[٢].

* وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

التؤدة فى كل شىء خير، إلا فى أمر الآخرة[٣].

* وعن عبد الواحد بن صفوان قال: كنا مع الحسن فى جنازة، فقال: رحم الله امرءاً عمل لمثل هذا اليوم. إنكم اليوم تَقْدرون على ما لا يقدر عليه إخوانكم هؤلاء من أهل القبور. فاغتنموا الصحة والفراغ، قبل يوم الفزعة والحساب[٤].

• الأمر أعجل من ذلك •

* عن هشام بن يحيى الغسانى، عن أبيه أنه قال: ما نمتُ يومًا قطُّ فحدثتُ نفسى أنى أستيقظُ منه!

* عن الحسن قال: قيل: يا أبا سعيد، ألا تغسل قميصك؟ قال: الأمر أعجل من ذلك![٥].

---

(١) قصر الأمل (ص: ١٠٨) وإحياء علوم الدين (٤/ ٦٦٩).

(٢) الإحياء (٤/ ٦٦٨).

(٣) الزهد/ للإمام أحمد (١/ ٢٩).

(٤) قصر الأمل (ص: ١٠٥).

(٥) قصر الأمل (ص: ٤٥).

www.ibtesama.com

* وكان حبيب يقول لزوجته: إن متُّ في اليوم فأرسلي إلى فلان يغسلني، وافعلي كذا، واصنعي كذا. فقيل لامرأته: أرأى رؤيا؟ قالت: هذا يقوله في كل يوم[١].

* ويقول شميط بن عجلان: طالت آمالكم، فجدَّدتم منازلكم من الدنيا، وطيبتم منها معايشكم، وتلذَّذتم فيها بطيب الطعام، ولين اللباس، كأنكم للدنيا خُلقتم! أوَ لا تعلمون أن الموت أمامكم؟ أولاَ تعلمون أن ملَكَ الموت موكَّل بآجالكم، لا يذهب عنه من المدة شيء؟.

ثم يقول: لا تكونوا ـ رحمكم الله ـ أقلَّ شيء بالموت اكتراثًا، وأعظمَ شي عن الموت غفلة، فما ينتظر الحيُّ إلا الموت! وما ينتظر المسافرُ إلا الظَّعن[٢].

* وعن سلمان الفارسي قال: ثلاثٌ أعجبتني، ثم أضحكتني! مؤمِّلُ الدنيا والموتُ يطلبه، وغافلٌ وليس بمغفولٍ عنه، وضاحكٌ ملء فيه ولا يدري أساخطٌ ربُّ العالمين عليه أم راضٍ عنه.

وثلاثة أحزنتني حتى أبكتني: فراقُ محمد ﷺ وحزبه والأحبة، وهولُ المطلع، والوقوفُ بين يدي ربي، لا أدري إلى الجنة يُؤمَرُ بي أو إلى النار!

* وعن إبراهيم بن نَشيط قال: قال لي أبو زُرعة الشامي:

لأقولنَّ لك قولاً ما قلتهُ لأحدٍ سواك!

ما خرجتُ من المسجد منذ عشرين سنة فحدثتُ نفسي أن أرجع إليه[٣].

* وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ والشمسُ على أطراف السَّعَف، فقال: «ما بقي من الدنيا إلا مثل ما بقي من يومنا هذا إلى ما مضى منه»[٤].

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعثْتُ أنا والساعة كهاتين»[٥].

---

(١) صفة الصفوة (٣/ ٣٢٠).

(٢) قصر الأمل (ص: ٥٨).

(٣) قصر الأمل (ص: ٦٠).

(٤) قال الحافظ العراقي: أخرجه ابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» بإسناد حسن.

(٥) أخرجه البخاري (٧/ ١٩١) وابن ماجه (٢/ ١٣٤١) (٤٠٤٠).

www.ibtesama.com

* وعن ابن عباس (رضى الله عنهما) أن النبى ﷺ قال: «مالى وللدنيا وما للدنيا ومالى والذى نفسى بيده ما مثلى ومثل الدنيا إلا كراكب سار فى يومٍ صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من النهار ثم راح وتركها[١].

* وقال الحسن: ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل.

وقال: إذا سرَّك أن تنظر إلى الدنيا بعدك، فانظر إليها بعد غيرك[٢].

* أين من جمع الأموال وتمولها، وطاف البلاد وجولها، وشق أنهار الأرض وجدولها رأت والله كل عاملة عملها، ونزلت بعد سفرها منزلها، عنت الوجوه على جسور المنايا الحوابس وأذل قبر الموت الشوامس[٣].

• كلمات من ذهب •

* عن صالح بن رستم قال: سمعت الحسن يقول: رحم الله رجلاً لم يغره كثرة ما يرى من كثرة الناس: ابن آدم إنك تموت وحدك وتدخل القبر وحدك وتُبعث وحدك وتحاسب وحدك ابن آم وأنت المعنى وإياك يُراد[٤].

* وكان يقول: حقيقٌ على من عرف أن الموت مورده، والقيامة موعده والوقوف بين يدى الجبار مشهده أن تطول فى الدنيا حسرته، وفى العمل الصالح رغبته».

* وعن هاشم عن الحسن قال: ما أكثر عبدٌ ذكر الموت إلا رأى ذلك فى عمله ولا طال أمل عبد قط إلا أساء العمل[٥].

* وعاد الحسن عليلاً فوافقه وهو فى الموت، ورأى تقلبه وشدة ما نزل به فلما رجع إلى داره قدموا له طعامًا فقال: عليكم بطعامكم وشرابكم فإنى رأيت مصرعًا لا بُد لى منه ولا أزال أعمل حتى ألقاه وتأخر عن الطعام أيامًا حتى لُطف به فأكل[٦].

* وكان يقول: عباد الله إن الله سبحانه لم يجعل لأعمالكم أجلاً دون الموت فعليكم

---

(١) رواه أحمد والحاكم عن ابن عباس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٦٩).

(٢) الزهد/ للحسن البصرى (ص: ٨٢).

(٣) التبصرة/ لابن الجوزى (١/ ٣١٣).

(٤) حلية الأولياء (٢/ ١٥٥).

(٥) الزهد/ للإمام أحمد (٢٣٦).

(٦) الحسن البصرى (ص: ٩٠).

www.ibtesama.com

بالمداومة فإنه جل ثناؤه يقول: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر:٩٩).

* وقال صالح المرى: دخلت على الحسن يومًا فوجدته ينشد:

ليس من مات فاستراح بميتٍ ... إنما الميت ميت الأحياء

إنما الميت من تراه كئيبًا ... كاسفًا باله قليل الرجاء

* ورأى الحسن شيخًا فى جنازة فلما فرغ من الدفن، قال له الحسن: يا شيخ أسألك بربك أتظن أن هذا الميت يود أن يُرد إلى الدنيا فيزيد من عمله الصالح ويستغفر الله من ذنوبه السالفة؟ فقال الشيخ: اللهم نعم، فقال الحسن: فما بالنا لا نكون كهذا الميت، ثم انصرف وهو يقول:

أى موعظة؟ وما أنفعها لو كان بالقلوب حياة، ولكن لا حياة لمن تنادى.

• وفى ذلك فليتنافس المتنافسون •

أيها الغافل ربح القوم وخسرت، وساروا إلى الحبيب وما سرت، وقاموا بالأوامر وضيعت ما به أُمرت، وسلموا من رق الهوى واغتررت فأُسرت، فالدنيا تخدمهم والسعادة تقدمهم حين يحشرون ﴿وفى ذلك فليتنافس المتنافسون﴾.

لقد شُوقتم إلى الفضائل فما اشتقتم، وزجرتم عن الرذائل وأنتم فى سُكر الهوى ما أفقتم، فلو حاسبتم أنفسكم وحققتم، علمتم أنكم بغير وثيق توثقتم، فاطلبوا الخلاص من أسر الهوى فقد جد الطالبون ﴿وفى ذلك فليتنافس المتنافسون﴾.

أيقظنا الله وإياكم لمصالحنا، وعصمنا من ذنوبنا وقبائحنا، واستعمل فى طاعته جميع جوارحنا، ولا جعلنا ممن يرضى بدون، ﴿وفى ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ [1].

أيا مـن يدَّعى الفهْمْ إلى كم يا أخـا الوهْمْ تعبِّى الذنب والذّمُ

وتُخطى الخطـأ الجَمْ

أمـا بان لك العيْبْ، أمـا أنذرك الشَّيْبْ وما فى نُصحـه رَيْبْ

ولا سَمْعُك قـد صمْ

(١) التبصرة/ لابن الجوزى (١/ ٢٨٦).

www.ibtesama.com

أما نادى بك الموتْ أما أسمعك الصوْت أما تخشى من الفوْتْ

فتحتـــــاط وتهتمْ

فكم تَسدرُ فى السَّهْوْ وتختالُ من الزَّهْوْ وتنصبُّ إلى اللهُـــوُ

كأنَّ المـوتَ مـــا عَمْ

كأنى بِكَ تَنْحَـطّ إلى اللَّحـدِ وتَنْغَـطّ وقـــد أسلمكَ الرَّهْـطَ

إلى أضْيَـقَ منْ سَـمْ

هناكَ الجِسمُ مَمـــدودْ ليستأكلَهُ الدُّودْ إلى أنْ ينخر العُـــــود

ويُمسِى العَظْمُ قد رَمْ

ومَنْ بعــد فلا بد مـن العرض إذا اعتُـــدَ صِراطٌ جسْرُهُ مُـــد

على النَّـــارِ لمـنْ أَمْ

فَبادر أيهـــا الغُمْرْ[1] لمـا يَحلُـو به المُرّ فقـــدْ كـــادَ يَهى العُمرُ

ومـا أقلعـتَ عـن ذَمْ

ولا تركنْ إلى الدهر وإن لان وإنْ سَرّ فَتُلقَى كَمَـن اغتَر

بِأفْعى تَنفُثُ السُّـــمْ

وخَفِّضْ مـــن ترَافيـــكْ فإنَّ المـــوت لاقيكْ وسَارٍ فى تراقيـك

ومـــا يَنكُلُ إنْ هَمْ

وزود نفسَكَ الخَيرْ ودَعْ ما يُعقبُ الضَّيْرْ[2] وهَيئْ مَركبَ السَّيرْ

وخَـفْ من لُجَّـة اليمْ

بِذا أُوصيتُ يَا صَـاحْ وقـد بُحْتُ كَمنْ بَاحْ فَطُوبَى لِفَتىً رَاحْ

بذكر المـوتِ يَهتَـمْ

* * *

(١) الجاهل الذى لم يجرب الأمور.

(٢) يقال: ضاره يضيره ضيراً إذا ضره.

www.ibtesama.com

• يا مشغولاً بما لديه عما بين يديه •

يا مشغولاً بما لديه عما بين يديه، يا غافلاً عن الموت وقد دنا إليه، يا ساعيًا إلى ما يضره بقدميه، يا مختار المؤذى له من حالتيه، يأمن الدهر وقد رأى صَرفَيْه، كم عايَن ميتًا لو اعتبر بعينيه، إنما أغار على شبابه هاجمٌ على فَوديه، أينفعه يوم الرحيل دمع يملأ خيه؟ يا من يصير عن قليل إلى حُفْرة، تنبّه لنفسك من هذه السَّكرة، لو أنك تذكَّرت لحدك.

• أين الأحباب •

سألت الدار تخبرنى عن الأحباب ما فعلوا
فقالت لى أناخ القو مُ أياءًا وقد رحلوا
فقلت فأين أطلبهم وأى منازلٍ نزلوا
فقالت بالقبور وقد لقوا والله ما فعلوا
أُناسٌ غرَّهم أملُ فبادرهم به الأجلُ
فنوا وبقى على الأيا م ما قالوا وما عملوا
وأُثبت فى صحائفهم قبيحُ الفعل والزللُ
فلا يُستعتبون ولا لهم ملجأ ولا حيلُ
ندامى فى قبورهم وما يغنى وقد حصلوا

• يا ناسى الموت وهو يذكره •

كم أسمعك الموت وعيدك، فلم تنتبه حتى قطع وريدك، ونقض منزلك وهم مَشيبك، ومزَّق مالك وفرق عبيدك، وأخلى دارك وملأ بيدَك، أما رأيت قَرينك؟ أما أبصرت فقيدك؟. أين الوالدون وما ولدوا، أين الجبارون وأين ما قصدوا، أين أرباب المعاصى على ماذا وردوا، أما جَنوا ثمرات ما جنوا وحصدوا، أما قدموا على أعمالهم فى مآلهم، ووفَدُوا، أما خَلَوا فى ظلمات القَبور؟ بكوا والله وانفردوا، أما ذلوا وقَلُّوا بعد أن عَتوا ومَردُوا، أما طلبوا زادًا يكفى فى طريقهم ففقدوا، أما حلَّ الموتُ فَحلَّ عقد ما عقدوا، عاينوا والله كلَّ ما قَدَّموا ووجدوا، فمنهم أقوامٌ شقُوا وأقوامُ سَعِدوا.

www.ibtesama.com

• كيف يغفل من لا يُغفل عنه •

* يا عجبًا أنس بالدنيا مفارقها، وأمِن النارَ واردُها، كيف يغفل من لا يُغفل عنه، كيف يفرح بالدنيا من يومُه يهدم شهرَه، وشهره يهدم سَنته وسنَته تَهدْم عُمره، كيف يلهو من يقوده عمرُه إلى أجله وحياته إلى موته؟!.

• إنكم لم تخلقوا عبثًا ولن تتركوا سُدى •

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ (القيامة:٣٦:٤٠).

* عن القعقاع بن عجلان قال: خطب عمر بن عبد العزيز، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وقال:

أيها الناس، إنكم لم تُخْلَقوا عبثًا، ولن تُتركوا سُدى. وإن لكم معادًا يجمعكم الله للحكم فيكم والفصل فيما بينكم، فخاب وشقى عبدٌ أخرجه الله من رحمته التى وسعت كلَّ شيء، وجنته التى عرضُها السماواتُ والأرض. وإنما يكون الأمان غدًا لمن خاف الله واتقى، وباع قليلاً بكثير، وفانيًا بباق، وشقْوةً بسعادة.

ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين، وسيخلفه بعدكم الباقون؟

ألا ترون أنكم فى كلِّ يوم تشيِّعون غاديًا أو رائحًا إلى الله، قد قضى نحبه، وانقطع أملُه، فيضعونه فى بطنِ صدعٍ من الأرض، غير موسد ولا ممهد؟ قد خلع الأسلاب، وفارق الأحباب، وراجه الحساب؟

وأيمُ الله إنى لأقول لكم مقالتى هذه، وما أعلمُ أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسى، ولكنها سننٌ من الله عادلةٌ، أمرَ فيها بطاعته، ونهى فيها عن معصيته. وأستغفر الله.

ووضع كُمَّهُ على وجهه، فبكى حتى لثقت لحيته، فما عاد إلى مجلسه حتى مات ـ رحمه الله ـ (١).

(١) «حلية الأولياء» (٥/ ٢٩٥)، و«إحياء علوم الدين» (٤/ ٦٦٣).

www.ibtesama.com

• مضى عمرك فى غير شىء •

يا حريصًا على الدنيا مضى عمرك فى غير شىء، وانقشع غيم الزمان لا عن هلال الهدى، مالذَّت الدنيا إلا لكافر لا يؤمن بالآخرة، أو لقليل العقل لا ينظر فى عاقبة، الدنيا خراب وأخرب منها قلب من يعمرها، إلى أى حين مع الصبا، أما يكفى ما قد مضى، إلى كم هذا الكرى أين التيقظ لحلول الثرى، كم قد قتل قبلك المنى وإنما يفهم أولو النهى يا أسير رقاده يا مريض فساده، يا معرضا عن رساه، يا من حب الدنيا فى سواد سواده، ما ينفعه النصح على كثرة ترداده.

فكم من صحيح بات للموت آمنًا ... أتته المنايا بغتة بعدما هجع

فلم يستطع إذ جاءه فجأة ... فرارًا ولا منه بقوته امتنع

فأصبح تبكيه النساء مقنعا ... ولا يسمع الداعى وإن صوته رفع

وقُرب من لحدٍ فصار مقيله ... وفارق ما قد كان بالأمس قد جمع[1]

• حُجبت قلوبنا بثلاثة أغطية •

* قال إبراهيم بن أدهم: قد حُجبت قلوبنا بثلاثة أغطية، فلن يكشف العبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب... الفرح بالموجود، والحزن على المفقود، والسرور بالمدح، فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط، والساخط مُعذَّب، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والمعجب يُحبط عمله[2].

• كم تركوا من جناتٍ وعيون •

* عن أبى بكر بن عياش قال:

لَمَّا دخل الناسُ مع على المدائن تمثَّل رجلٌ من أصحابه:

جرتِ الرياح على مكان ديارهم ... فكأنما كانوا على ميعاد

وإذا النعيم وكل ما يُلهى به ... يومًا يصير إلى بِلىً ونفاد

(١) النبصرة/ لابن الجوزى (١/ ٣٨٦).

(٢) الإحياء (٤/ ٣٣٦).

www.ibtesama.com

فقال على: لا تقل هكذا، ولكن قل كما قال الله: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (الدخان:٢٥ ـ ٢٨). إن هؤلاء القوم كانوا وارثين فأصبحوا موروثين، إن هؤلاء القوم استحلوا فحلَّت بهم النِّقم، فلا تستحلوا الحرام فتحلَّ بكم النَّقم[١].

* وقال أحدهم:

يا أيها البانى الناسى منيَّته ... لا تأمنَنَّ فإن الموتَ مكتوبُ

على الخلائق إن سرُّوا وإن فرحوا ... فالموتُ حتفٌ لدى الآمال منصوبُ

لا تبنينَّ ديارًا لست تسكُنها ... وراجعْ لنفسك فيما يُغفَر الحوب[٢]

* وكان عمر بن عبد العزيز لا يبنى بنيانًا وقال: سنة رسول الله ﷺ خيرٌ من الدنيا وما فيها، لم يبنِ بنيانًا، ولم يضع لَبِنة على لَبِنة، ولا قصبة على قصبة[٣].

* وعن وهب بن منبِّه قال: لبث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله ليس له بيت يسكن فيه. فقيل له: يا نبى الله، لو اتخذت بيتًا يكنُّك.

قال: اليوم أموت، غدًا أموت. حتى أتاه الموت ولم يتخذ بيتًا![٤].

• موعظة بليغة •

* أيها الناس تقوَّوا بهذه النعم التى أصبحتم فيها على الهرب من النار الموقدة التى تَطَّلع على الأفئدة، فإنكم فى دار الثَّواءُ فيها قليل، وأنتم فيها مؤجلَّون وخلائف من بعد القرون، الذين استقبلوا من الدنيا زخرفها وزهرتها، فهم كانوا أطول منكم أعمارًا وأمدَّ أجسامًا وأعظم آثارًا، فجدّدوا الجبال وجابُوا الصخور، ونقَّبوا فى البلاد مؤيَّدين ببطش شديد وأجسام كالعمَاد، فما لبثت الأيام والليالى أن طوت مُدتَّهم، وعفَّت آثارهم، وأخْوت منازلهم، وأَنْست ذكرهم، فما تُحسُّ منهم من أحد ولا تسمع لهم رِكزًا. كانوا بلهو الأمل آمنين كبيَات قومٍ غافلين، أو كصباح قومٍ نادمين، ثم إنكم قد علمتم الذى قد

(١) قصر الأمل (ص: ٢٠٦: ٢٠٧).

(٢) قصر الأمل (ص: ١٧٥).

(٣) وكذا رواه الحسن البصرى مرسلاً.

(٤) قصر الأمل (ص: ١٦٧).

www.ibtesama.com

نزل بساحتهم بَيَاتًا فأصبح كثير منهم فى ديارهم جاثمين، وأصبح الباقون ينظرون فى آثار نقمة وزوال نعمة ومساكن خاوية، فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم.

* قال ابن الجوزى ـ رحمه الله ـ:

اصبر لمُر حوادث الدهر ... فلتحمدنّ مغبة الصبرِ
واجهد لنفسك قبل ميتتها ... واذخر ليوم تفاضل الذخر
فكأن أهلك قد دعوك فلم ... تسمع وأنت محشرج الصدر
وكأنهم قد قلبوك على ظهر ... السرير وأنت لا تدرى
وكأنهم قد زودوك بما ... يتزود الهلكى من العطر
يا ليت شعرى كيف أنت إذا ... غُسِّلت بالكافور والسدر
يا ليت شعرى كيف أنت على ... بنش الضريح وظلمة القبر
يا ليت شعرى ما أقول إذا ... وُضع الكتاب صبيحة الحشر
ما حُجتى فيما أتيت على ... علم ومعرفة وما عذرى
يا سوأتا مما اكتسبت ويا ... أسفى على ما فات من عمرى
ألا أكون عقلت شأنى فاسـ ... ـتقبلت ما استدبرت من أمرى

• لا تكن ممن يفضحه يوم موته ميراثه •

* قال يحيى بن معاذ: «لا تكن ممن يفضحه يوم موته ميراثه، ويوم حشره ميزانه»(١).

* وعن الحسن قال: الدنيا ثلاثة أيام: أما أمس فقد ذهب بما فيه، وأما غدًا فلعلك لا تدركه، فاليوم لك فاعمل فيه.

* وقال روح بن مدرك وهو على المنبر: الآن قبل أن تسقم فتضنى، وتهرم فتبلى، ثم تموت فتنسى، ثم تقبر فتبلى، ثم تُبعث فتحيى، ثم تحضَرَ فتدعى، ثم توقف فتجزى، بما قدمت وأمضيت، وأذهبت فأفنيت من موبقات سيئاتك، ومتلفات شهواتك فالآن الآن وأنتم سالمون(٢).

(١) الزهد الكبير (ص: ٢٥٥).
(٢) الزهد الكبير (ص: ٢٣٥).

www.ibtesama.com

• رحم الله أعظماً نُصبت فى الطاعة •

رحم الله أعظما نُصبت فى الطاعة وانتصبت، جَنّ عليها الليل فلما تمكّن وثبت كلما ذكرت جهنم رهبت وهربت، وكلما تصورت ذنوبها ناحت عليها وندبت.

كان ابن مسعود يبكى حتى أخذ بكفيه من دموعه فرمى بها، وكان عبد الله ابن عمر يبكى حتى نشفت دموعه وقلصت عيناه. وبكى هشام الدستوائى حتى فسدت عينه، كانت مفتوحة لا يبصر لها، وكان الفضيل قد ألف البكاء فربما بكى فى نومه فيسمعه أهل الدار.

بكى الباكـون للرحمـن ليلاً وباتـوا دمعـهم لا يسأمونـا
بقاع الأرض من شوق إليهم تحن متى عليهـــا يسجدونـا[1]

• رحم الله عبداً عمل لساعة الموت •

* يقول شميط بن عجلان:

أيها المغترُّ بطول صحته، أما رأيت ميتًا قطُّ من غير سقم؟

أيها المغترُّ بطول المهلة، أما رأيت مأخوذًا من غير عُدة؟

إنك لو فكرت فى طول عمرك لنسيت ما قد تقدَّم من لذاتك.

أبالصحة تغترُّون؟ أم بطول العافية تمرحون؟ أم للموت تأمنون؟ أم على ملك الموت تجترؤون؟!

إن ملك الموت إذا جاء لم يمنعه منك ثروةُ مالك، ولا كثرة احتشادك.

أما علمت أن ساعة الموت ذاتُ كربٍ وغُصص وندامة على التفريط؟

ثم يقول:

رحم الله عبدًا عمل لساعة الموت.

رحم الله عبدًا عمل لما بعد الموت.

رحم الله عبدًا نظر لنفسه قبل نزول الموت[2].

---

(١) التبصرة/ لابن الجوزى (١/ ٣٦٤).

(٢) «صفة الصفوة» (٣/ ٣٤٧)، «قصر الأمل» ص (٦٢).

www.ibtesama.com

• لقد كنت فى غفلة من هذا •

قال ابن الجوزى ـ رحمه الله ـ:

كأنك بالعمر قد انقرض، وهَجم عليك المرض، وفات كلُّ مراد وغرض، وإذا بالتلف قد عَرض أخَّاذا: ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا﴾.

شخَص البصرُ وسكن الصَّوْت، ولم يمكن التداركُ للفوْت، ونزل بك ملَك الموت فسامَت الروُّح وحاذى: ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا﴾.

عالجت أشدَّ الشدائد، فيا عجبًا مما تُكابد، كأنك قد سُقيت سُمَّ الأساود فقطَّع أفْلاذا ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا﴾.

بلغت الروحُ إلى التراقى، ولم تعرف الراقى من الساقى، ولم تدر عند الرحيل ما تلاقى، عِياذا بالله عياذا ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا﴾.

ثم درجوك فى الكفن وحملوك إلى بيت العفَن، على العيب القبيح والأفَن، وإذا الحبيب من التراب قد حفَن، وصرت فى القبر جُذاذا ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا﴾.

وتسربت عنك الأقارب تسرى، تقدُّ فى مالك وتَقْرِى، وغايةُ أمرهم أن تجرى دموعهم زذاذا ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا﴾.

قفلوا الأقفال وبضَّعوا البضاعة، ونسَوا ذكرك يا حبيبهم بعد ساعة وبقيت هناك إلى أن تقوم الساعة، لا تجد وزرًا ولا معاذا ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا﴾.

ثم قمت من قبرك فقيرًا، لا تملك من المال نَقيرًا، أصبحت بالذنوب عَقِيرًا، فلو قدَّمت من الخير حقيرًا صار ملجأ وملاذًا، ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا﴾.

كم يوم غابت شمسه وقلبك غائب، وكم ظلام أُسبل سِتْرهَ وأنت فى عجائب، وكم أُسبغت علَيك نعمه وأنت للمعاصى تُواثبْ، وكم صحيفة قد ملأها بالذنوب الكاتب، وكم يُنذرك سَلب رفيقك وأنت لاعبْ، يا من يأمن الإقامةَ قد زُمَّت الركائب، أفق من سَكرتك قبل حسرتك على المعايب، وتذكَّر نزولَ حُفْرتك وهجران الأقارب، وانهض عن بساط الرقاد وقل: أنا تائب، وبادر تحصيل الفضائل قبل فوت المطالب، فالسائق حثيث والحادى مُجدٌّ والموت طالب.

* * *

www.ibtesama.com

الطريق إلى حسن الخاتمة

• علامات حُسن الخاتمة •

قال الشيخ الألبانى فى «أحكام الجنائز»[١].

«إن الشارع الحكيم قد جعل علامات بيِّنات يُستدل بها على حُسن الخاتمة، كتبها الله تعالى لنا بفضله ومنِّه، فأيما امرئ مات بإحداها كانت بشارة له، ويا لها من بشارة.

• الأولى، نطقه بالشهادة عند الموت:

قال ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»[٢].

* وعن طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه قال: «رأى عمر طلحة بن عبيد الله ثقيلاً فقال: مالك يا أبا فلان؟ لعلك ساءتك امرأة عمك يا أبا فلان؟ قال: لا (وأثنى على أبى بكر) إلا أنى سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا ما منعنى أن أسأله عنه إلا القدرة عليه حتى مات سمعته يقول: إنى لأعلم كلمة لا يقولها عبدٌ عند موته إلا أشرق لها لونه، ونفَّس الله عنه كربته، فقال عمر: إنى لأعلم ما هى: قال: وما هى؟ قال: تعلم كلمة أعظم من كلمة أمر بها عمه عند الموت: لا إله إلا الله؟ قال طلحة: صدقت، هى والله هى[٣].

• الثانية، الموت برشح الجبين:

لحديث بريدة بن الخطيب رضى الله عنه: أنه كان بخراسان فعاد أخًا له وهو مريض فوجده بالموت، وإذا هو يعرق جبينه فقال الله أكبر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «موت المؤمن بعرق الجبين..»[٤].

---

(١) سنذكر كلام الشيخ مختصرًا وسنزيد عليه بإذن الله.

(٢) رواه أبو داود وحسنه الألبانى فى الإرواء (٦٨٦).

(٣) رواه أحمد والحاكم، وصحح إسناده أحمد شاكر.

(٤) رواه أحمد وحسنه الحاكم (١/ ٣٦١) ووافقه الذهبى.

www.ibtesama.com

• الثالثة: الموت ليلة الجمعة أو نهارها:

لقوله ﷺ: «ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر...»(١).

• الرابعة: الاستشهاد فى ساحة القتال:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:١٦٩:١٧١).

وقال ﷺ: «للشهيد عند الله سبعُ خصال: يُغفرُ له فى أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويُحلَّى حُلة الإيمان، ويُزوجُ اثنينِ وسبعين زوجةً من الحور العين، ويُجارُ من عذاب القبرِ، ويأمنُ من الفزع الأكبر، ويُوضعُ على رأسه تاجُ الوقارِ، الياقوتة منهُ خيرٌ من الدنيا وما فيها، ويشفعُ فى سبعين إنسانًا من أهلِ بيته»(٢).

* وعن رجل من أصحاب النبى ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله! ما بال المؤمنين يُفتنون فى قبورهم إلا الشهيد؟ قال: «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة»(٣).

• قال الشيخ الألبانى (رحمه الله):

(تنبيه): ترجى هذه الشهادة لمن سألها مخلصًا من قلبه ولو لم يتيسر له الاستشهاد فى المعركة، بدليل قوله ﷺ: «من سأل الله الشهادة بصدق، بلَّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»(٤).

• الخامسة والسادسة والسابعة: من صُرع عن دابته فى سبيل الله ومن وقصه بعيره ومن لدغته هامة وهو فى سبيل الله:

* عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن صُرِع عن دابته فهو شهيد»(٥).

---

(١) رواه أحمد والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٧٣).

(٢) رواه أحمد والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١٨٢).

(٣) رواه النسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٤٨٣).

(٤) رواه مسلم (١٩٠٩)، وأبو داود (١٥٢٠)، والترمذى (١٦٥٣)، وابن ماجه (٢٧٩٧).

(٥) رواه الطبرانى فى «الكبير»، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٣٣٦).

www.ibtesama.com

* عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من فصل فى سبيل الله فمات، أو قُتل، أو وَقَصَتْه فرسُه أو بعيرُه، أو لدغته هامةٌ، أو مات على فراشه، بأىّ حتفٍ شاء الله، فإنه شهيد، وإن له الجنة»(١).

• قال المناوى فى «فيض القدير» (١٦٣/٦):

و«من صُرع عن دابته» فى سبيل الله فمات «فهو شهيد» أى: من شهداء المعركة إن كان سقوطه بسبب القتال، وعلى ذلك ترجم البخارى (باب فضل من صُرع فى سبيل الله فمات فهو منهم)، أى: من المجاهدين، فلمّا كان الحديث ليس على شرطه، أشار إليه بالترجمة، وفى الباب ما رواه أبو داود، والحاكم، والطبرانى عن أبى مالك الأشعرى مرفوعًا. والصرع، كما فى القاموس وغيره: الطَّرْح على الأرض، وعلةٌ معروفة، والمراد: بالحديث السقوط عن الدابة حال قتال الكفار بسبب أى وجه كان؛ إما بطرح الدابة له، أو بعروض تلك العلَّة فى تلك الحالة عروضًا ناشئًا عن القتال، كأن أورثه شدة الانفعال».

• الثامنة: من سأل الله الشهادة بصدقٍ ومات على ذلك:

قال ﷺ: «من سأل الله الشهادة بصدق، بلَّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»(٢).

* وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ سأل الله القتل فى سبيل الله، صادقًا من قلبه، أعطاه الله أجر شهيد، وإن مات على فراشه»(٣).

• التاسعة والعاشرة: المائد فى البحر والغريق:

المائد هو الذى يموت بسبب دوار البحر فله أجر شهيد.

* عن أم حرام رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «للمائد أجرُ شهيد، وللغريقِ أجرُ شهيدين»(٤).

* وعن أم حرام رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «المائدُ فى البحر الذى يُصيبه القىءُ له أجرُ شهيد، والغريق له أجر شهيدين»(٥).

(١) رواه أبو داود والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤١٣).
(٢) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى.
(٣) رواه الترمذى وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٧٧).
(٤) رواه الطبرانى فى الكبير، وأبو داود ـ صحيح الجامع (٥١٨٧).
(٥) رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٤٢).

www.ibtesama.com

• الحادية عشر: من افترسه السبع:

* عن ابن قانع، عن ربيع الأنصارى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «الطَّعن والطاعون والهدم، وأكل السبع، والغرق، والحرق، والبطن، وذات الجنب ـ شهادةٌ»(١).

• الثانية عشر: الشريق:

قال ابن الأثير فى «النهاية»: هو الذى يشرق بالماء فيموت.

قال ابن حجر فى «الفتح» (٦/٥٢): «وللطبرانى من حديث ابن عباس مرفوعًا: «المرء يموت على فراشه فى سبيل الله شهيد». وقال ذلك أيضًا فى المبطون واللديغ والغريق والشريق والذى يفترسه السبع، والخارّ عن دابته، وصاحب الهدم، وذات الجنب».

• الثالثة عشر: القابض على دينه فى وقت الفتن:

* عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن من ورائكم زمانَ صبرٍ، للمتمسك فيه أجرُ خمسين شهيداً منكم»(٢).

* وعن عتبة بن غزوان، أن رسول الله ﷺ قال: «إن من ورائكم أيامَ الصبر، للمتمسك فيهنَّ يومئذ بما أنتم عليه، أجرُ خمسين منكم». قالوا: يا نبى الله، أو منهم؟ قال: «بل منكم»(٣).

• الرابعة عشر: من تردَّى من رؤوس الجبال:

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: «إن من يتردَّى من رؤوس الجبال وتأكله السباع ويغرق فى البحار لشهيدٌ عند الله»(٤).

* قلت: وذلك لمن مات على التوحيد، أما من مات على الشرك فلا يكون شهيداً ولا يرزقه الله نعمة الشهادة.

• الخامسة عشر: المرابط فى سبيل الله:

* لقوله ﷺ «الرباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه

---

(١) رواه ابن قانع، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٩٥٣).

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٢٣٤).

(٣) صححه الألبانى بشواهده فى الصحيحة (٤٩٤) (١/ ٢٦٨).

(٤) إسناده صحيح: أخرجه عبد الرزاق فى «المصنف»، كتاب الجهاد، باب فى الشهادة (٥/ ٢٦٩)، موقوفًا بإسناد صحيح، والطبرانى فى «معجمه».

قال الحافظ فى «الفتح» (٦/ ٥٢): إسناده صحيح، وأخرجه سعيد بن منصور فى «سننه».

www.ibtesama.com

عمله الذى كان يعمله، وأُجرى عليه رزقه، وأمِن الفتان»[١].

* ولقوله ﷺ: «كل ميت يُختم على عمله إلا الذى مات مرابطًا فى سبيل الله فإنه يُنمَّى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن فتنة القبر»[٢].

• **السادسة عشر: من قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله:**

قال رسول الله ﷺ: «سيِّدُ الشهداء: حمزة بن عبد المطلب، ورجلٌ قام إلى إمامٍ جائرٍ، فأمره ونهاه. فقتله»[٣].

• **السابعة عشر: الموت على عمل صالح:**

قال ﷺ: «من خُتم له بصيام يومٍ دخل الجنة»[٤].

وقال ﷺ: «... ومن تصدق بصدقة ابتغاء وجه الله خُتم له بها دخل الجنة»[٥].

وقال ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيرًا استعمله»، قيل: كيف يستعمله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح قبل الموت، ثم يقبضهُ عليه»[٦].

• **الثامنة عشر: من دعا بدعاء يونس (عليه السلام) أربعين مرة فى مرضه:**

﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾ (الأنبياء: ٨٧). إنه دعاء نبى الله يونس (عليه السلام). قال رسول الله ﷺ: «أيّما مسلم دعا بها فى مرضه أربعين مرة، فمات فى مرضه ذلك، أُعطى أجر شهيد، وإن برأ، برأ وقد غُفر له جميع ذنوبه»[٧].

• **التاسعة عشر: الموت بالطاعون:**

قال ﷺ: «الطاعون شهادة لكل مسلم»[٨].

* وعن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون؟ فأخبرها نبى الله ﷺ: «أنه

---

(١) أخرجه مسلم (١٩١٣) الإمارة ـ والترمذى (١٦٦٥) فضائل الجهاد.

(٢) رواه أبو داود والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥٦٢).

(٣) رواه الحاكم والضياء، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٦٧٥).

(٤) رواه البزار وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٢٤).

(٥) رواه أحمد (٥/ ٣٩١) وقال الألبانى: وإسناده صحيح.

(٦) رواه أحمد والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٥).

(٧) رواه الحاكم (١/ ٥٠٦) وصححه ووافقه الذهبى.

(٨) أخرجه البخارى (١٠/ ١٩٠) الطب.

www.ibtesama.com

كان عذابًا يبعثه الله على من يشاء، فجعله الله رحمة للمؤمنين، فليس من عبد يقع الطاعون فيمكث فى بلده صابرًا يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد»[١].

• **العشرون: الموت بالهدم:**

قال ﷺ: «الشهداء خمسة: المطعون والمبطون والغرق وصاحب الهدم والشهيد فى سبيل الله»[٢].

• **الحادية والعشرون: الموت بداء البطن:**

* لقول رسول الله ﷺ: «... ومن مات فى البطن فهو شهيد»[٣].

* وعن عبد الله بن يسار قال: كنت جالسًا وسليمان بن صرد وخالد بن عرفطة، فذكروا أن رجلاً توفى، مات ببطنه، فإذا هما يشتهيان أن يكونا شهداء جنازته فقال أحدهم للآخر: ألم يقل رسول الله ﷺ: «من يقتله بطنه فلن يعذب فى قبره».

فقال الآخر: بلى، وفى رواية: «صدقت»[٤].

• **الثانية والعشرون: المرأة تموت فى نفاسها بسبب ولدها:**

* عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ عاد عبد الله بن رواحة قال: فما تحوز له عن فراشه فقال: «أتدرى من شهداء أُمَّتى؟»، قالوا: قتل المسلم شهادة قال: «إن شهداء أمتى إذًا لقليل! قتل المسلم شهادة، والطاعون شهادة، والمرأة يقتلها ولدها جمعاء شهادة (يجرها ولدها بسرره إلى الجنة)»[٥].

• **الثالثة والعشرون والرابعة والعشرون: الموت بالحرق وذات الجنب:**

قال ﷺ: «الشهداء سبعة سوى القتل فى سبيل الله: المطعون شهيد، والغرق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، والحرق شهيد، والذى يموت تحت الهدم

---

(١) أخرجه البخارى (١٠/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣) الطب.

(٢) أخرجه البخارى (٦/ ٥٠) الجهاد والسير ـ ومسلم (١٩١٤) الإمارة.

(٣) رواه مسلم (١٩١٥) «الإمارة»، وأحمد (٢/ ٤١٠).

(٤) رواه النسائى، وأحمد، وقال الألبانى: وسنده صحيح.

(٥) رواه أحمد والدارمى، وقال الألبانى: وإسناده صحيح.

www.ibtesama.com

شهيد، والمرأة تموت بجمع[١] شهيدة»[٢].

• **الخامسة والعشرون والسادسة والعشرون والسابعة والعشرون: الموت فى سبيل الدفاع عن الدين والنفس والأهل:**

لقوله ﷺ «من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد»[٣].

* وقال رسول الله ﷺ «من قُتل دون مظلمته فهو شهيد»[٤].

• **الثامنة والعشرون: الموت فى سبيل الدفاع عن المال المراد غصبه:**

قال ﷺ «من قُتل دون ماله» ـ وفى رواية: «من أريد ماله بغير حق فقاتل فقُتل فهو شهيد»[٥].

* وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت إن جاء رجلٌ يريد أخذ مالى؟ قال: «فلا تعطه مالك». قال: أرأيت إن قاتلنى؟ قال: «قاتله»، قال: أرأيت إن قتلنى، قال: «فأنت شهيد»، قال: أرأيت إن قتلته؟، قال: «هو فى النار»[٦].

* وعن مخارق رضى الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: الرجل يأتينى فيريد مالى؟ قال: «ذكِّرهُ بالله»، قال: فإن لم يذكر؟ قال: «فاستعن عليه من حولك من المسلمين». قال: فإن لم يكن حولى أحد من المسلمين؟ قال: «فاستعن عليه السلطان». قال: فإن نأى السلطان عنى (وعجل علىَّ؟) قال: «قاتل دون مالك حتى تكون من شهداء الآخرة، أو تمنع مالك»[٧] ـ أى تحمى مالك ـ.

---

(١) هى ورم حار يعرض فى الغشاء المستبطن للأضلاع: «أى تموت وفى بطنها ولد، وقيل التى تموت بكرًا، والجمع بالضم بمعنى المجموع، كذخر بمعنى المذخور، وكسر الكسائى الجيم، والمعنى أنها ماتت مع شىء مجموع فيها غير منفصل عنها من حمل أو بكارة». قلت: والمراد هنا الحمل قطعًا بدليل الحديث المتقدم بلفظ «يقتلها ولدها جمعاء».

(٢) رواه الحاكم، وصححه ووافقه الذهبى.

(٣) رواه أبو داود وأحمد، وصححه أحمد شاكر.

(٤) رواه النسائى وأحمد، وصححه أحمد شاكر.

(٥) رواه البخارى (٥/ ١٤٧)، والنسائى (٧/ ١١٦) الجنائز.

(٦) رواه مسلم (١٤٠) الإيمان، والنسائى (٧/ ١١٤) الجنائز.

(٧) رواه النسائى وأحمد، وقال الألبانى: وسنده صحيح.

www.ibtesama.com

• التاسعة والعشرون: الموت غازيًا فى سبيل الله:

لقوله ﷺ: «ما تعدون الشهيد فيكم؟»، قالوا: يا رسول الله من قُتل فى سبيل الله فهو شهيد. قال: «إن شهداء أمتى إذًا قليلٌ»، قالوا: فمن هم يا رسول الله؟ قال: «من قُتل فى سبيل الله فهو شهيدٌ، ومن مات فى سبيل الله فهو شهيد، ومن مات فى الطاعون فهو شهيد، والغريق شهيد..»(١).

• الثلاثون: الموت بداء السل:

قال ﷺ: «القتل فى سبيل الله شهادة، والنفساء شهادة، والحرق شهادة، والغرق شهادة، والسل شهادة، والبطن شهادة»(٢).

• الحادية والثلاثون: الموت بالمدينة المنورة:

* عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها، فإنى أشفع لمن يموت بها»(٣).

* فاللهم ارزقنا شهادةً فى سبيلك وأن نُدفن فى بلد حبيبك ﷺ .

• أسباب حسن الخاتمة •

(١) إقامة التوحيد لله (جل وعلا):

إن أمر العقيدة ليس أمرًا ثانويًا حتى نؤجله أو نؤخره، بل هو الأساس الذى يقوم عليه الدين كله... فالإسلام عقيدة تنبثق منها شريعة وتلك الشريعة تنظم شئون الحياة ولا يقبل الله من قومٍ شريعتهم حتى تصحَّ عقيدتهم.

قال ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبدُ اللهِ ورسولُه وكلمتُهُ ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، والجنة حقٌ والنارَ حق أدخله الله الجنة علىَ ما كان من العمل»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (١٩١٥) الإمارة ـ وأحمد (٢/ ٣١٠).

(٢) قال الهيثمى فى المجمع (٢/ ٣١٧) رواه الطبرانى فى الكبير، وفيه مندل بن على، وفيه كلام كثير، وقد وُثق، وقال الألبانى: ويشهد له حديث راشد بن حبيش.

(٣) رواه أحمد والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٨٥٤).

(٤) أخرجه البخارى (٣٤٣٥) كتاب الأنبياء ـ ومسلم (٢٨) الإيمان.

www.ibtesama.com

وفى حديث عتبان بن مالك «فإن الله حرَّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله»(١).

وقوله: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» قال الحافظ: معنى قوله: «على ما كان من العمل» أى من صلاح أو فساد؛ لأن أهل التوحيد لابد لهم من دخول الجنة على حسب أعمال كل منهم فى الدرجات.

* قال ﷺ: «المسلم إذا سُئل فى القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾»(٢).

فيا عبد الله أقم التوحيد لله فى قلبك فإنك سوف تجنى ثمراته فى حياتك وعند موتك وفى قبرك ويوم حشرك وسيقودك التوحيد لله جل وعلا إلى جنات النعيم وإلى رضوان الله (سبحانه وتعالى).

(٢) التقوى:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:١٠٢). وقال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ (البقرة:١٩٧).

فالتقوى من أعظم الأسباب التى تقود المؤمن إلى حُسن الخاتمة.

فهى سبب لتكفير السيئات ومغفرة الذنوب.. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الأنفال:٢٩).

وهى سبب لقبول الأعمال.. قال تعالى: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ (المائدة:٢٧).

وهى سبب للخروج من كل ضيق كما قال تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ (الطلاق:٢، ٣)، ولا شك أن العبد عند السكرات يكون فى ضيق وشدة فتكون التقوى سببًا لنجاته.

والتقوى سبب لتيسير السكرات على العبد المؤمن.. قال تعالى: ﴿ومن يتق الله

(١) أخرجه البخارى (٣٢٥) كتاب الصلاة ـ ومسلم (٢٦٣) المساجد.

(٢) متفق عليه عن البراء بن عازب.

www.ibtesama.com

يجعل له من أمره يسراً﴾ (الطلاق:٤).

والتقوى سبب للنجاة من المهالك.. قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ (مريم:٧١، ٧٢).

وهى سبب لدخول الجنة.. قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ (مريم:٦٣).

يقول الحافظ ابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم والحكم[١]: (وأصل التقوى: أن يجعل العبد بينه وبين من يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه). اهـ.

وقال طلق بن حبيب: إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى، قالوا: وما التقوى؟ قال: «أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله»[٢].

* وجاء سائل لأبى هريرة رضى الله عنه يسأله عن التقوى فقال أبو هريرة: «هل أخذت طريقًا ذا شوك؟ قال السائل: نعم، قال أبو هريرة: فكيف صنعت؟ قال السائل: إذا رأيت الشوك عدلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه.

قال أبو هريرة: ذاك التقوى.

فأخذ ابن المعتز هذا المعنى الكبير وترجمه فى هذه الأبيات المعبرة فقال:

خلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها ... فهو التُّقى

واصنع كماشٍ فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

* وحد التقوى الذى حده عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى قوله تعالى: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ قال: «أن يطاع الله ـ سبحانه وتعالى ـ فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر»[٣].

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٨) ط. دار الرسالة.

(٢) الزهد لابن المبارك (ص: ٤٧٣).

(٣) رواه الحاكم فى المستدرك موقوفًا.

www.ibtesama.com

(٣) الاستقامة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ (فصلت:٣٠:٣٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأحقاف:١٣، ١٤).

* وفى صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله رضى الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، قل لى فى الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحدًا غيرك. قال: «قل: آمنتُ بالله. ثم استقم».

فالاستقامة كلمةٌ جامعة، آخذةٌ بمجامع الدّين، وهى القيام بين يدى الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد.

ولقد سُئل صدِّيق الأُمة وأعظمها استقامةُ ـ أبو بكر الصديق رضى الله عنه ـ عن الاستقامة، فقال: أن لا تشرك بالله شيئًا. فأراد بها الاستقامة على مَحْضِ التوحيد.

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهى، ولا تروغ روغان الثعالب.

وقال ابن تيمية (رحمه الله): أعظم الكرامة لزوم الاستقامة.

وقال بعض العارفين: كن صاحب الاستقامة، لا طالب الكرامة، فإن نفسك متحركة فى طلب الكرامة، وربُّك يطالبك بالاستقامة.

فالاستقامة تتعلَّق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات. فالاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله، وعلى أمر الله.

* قال أبو إسحاق السبيعى: «لما احتُضر أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، قال: لا تبكوا علىَّ، فإنى لم أتنطَّف بخطيئة منذ أسلمت».

لله درُّه، ثنتا عشرة سنة لم يفعل خطيئة، وحياتُه كلُّها طاعة.

«كان يصلِّى فى الصيف نصف النهار حتى تُكره الصلاة، ثم يصلِّى من الظهر إلى العصر».

www.ibtesama.com

• وهيب بن الورد (رحمه الله):

كان سفيان الثوريّ إذا حدّث الناس فى المسجد الحرام وفرغ من الحديث، قال: قوموا إلى الطبيب؛ يعنى: وهيبًا[١].

قال وهيب رحمه الله: إن استطعتَ أن لا يشغلك عن الله تعالى أحدٌ، فافعل.

وعن محمد بن يزيد قال: حَلَف وهيب أن لا يراه الله ولا أحدٌ من خلقه ضاحكًا، حتى يأتيه الرسل من قِبَل الله عند الموت فيخبرونه بمنزله عند الله. قال: وكانوا يرون له الرؤيا أنه من أهل الجنة، فإذا أُخبر بها اشتدَّ بكاؤه، وقال: قد حسبتُ أن يكون هذا من الشيطان.

عن عبد الله بن المبارك قال: قيل لوهيب بن الورد: أيجدُ طعم العبادة من يعصى الله؟ قال: لا، ولا مَن همَّ بمعصية.

وقال رحمه الله: لا يكون همُّ أحدكم فى كثرة العمل، ولكن ليكن همُّه فى إحكامه وتحسينه؛ فإن العبد قد يصلِّى وهو يعصى الله فى صلاته، وقد يصوم وهو يعصى الله فى صيامه.

• أبو الطيب الطبرى (رحمه الله):

اشتهر اسمه، فملأ الأقطار. وشاع ذكره، فكان أكثر حديث السمَّار. وطاب ثناؤه، فكان أحسن من مِسْك الليل وكافور النهار.

«قال القاضى أبو بكر الشامى: قلت للقاضى أبى الطيب شيخنا ـ وقد عُمِّر ـ: لقد متِّعْتَ بجوارحك. فقال: لِمَ لا، والله ما عصيتُ الله بواحدة منها قط»[٢].

* وقال ابن دقيق العيد (رحمه الله): ما تكلمت بكلمة ولا فعلت فعلاً منذ أربعين سنة إلا وأعددت له جوابًا بين يدى الله (عز وجل).

* وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): إنى إلى الآن أُجدِّد إسلامى كل وقت.

ـ وهكذا تكون الاستقامة على الطاعة.. فأهل الاستقامة هم الذين تنزل عليهم الملائكة عند الموت لتبشرهم بجنة الرحمن التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا

(١) الحلية (٨/ ١٤٠).

(٢) طبقات السبكى (٥/ ١٥).

www.ibtesama.com

خطر على قلب بشر.

(٤) الإكثار من ذكر الموت:

فالإكثار من ذكر الموت يردع عن المعاصى ويُلين القلب القاسى. ومن أكثر من ذكر الموت أُكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة وقناعة القلب ونشاط العبادة ومن نسى الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة وترك الرضا بالكفاف والتكاسل فى العبادة.

ومما يؤثر فى النفس من مشاهد الموت رؤية المحتضرين فإن فى النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته ونزعاته وتأمل صورته بعد مماته ما يقطع عن النفوس لذاتها ويمنع الأجفان من النوم والأبدان من الراحة ويبعث على العمل ويزيد فى الاجتهاد.

دخل الحسن البصرى على مريض يعوده فوجده فى سكرات الموت فنظر إلى كربه وشدة ما نزل به فرجع إلى أهله بغير اللون الذى خرج به من عندهم فقالوا له: الطعام يرحمك الله فقال: يا أهلاه عليكم بطعامكم وشرابكم فوالله لقد رأيت مصرعًا لا أزال أعمل له حتى ألقاه.

* عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أكثروا ذكر هاذم اللذات: الموت»[(١)].

وعن ابن عمر رضى الله عنهما: أن النبى ﷺ سُئل: أى المؤمنين أكيس، قال: «أكثرهم للموت ذكرًا وأشدهم استعدادًا له أولئك هم الأكياس»[(٢)].

وقال الحسن البصرى: فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذى لُب فيها فرحًا، وما ألزم عبد قلبه الموت إلا صغرت الدنيا عليه، وهان عليه جميع ما فيها.

وكان ابن عمر رضى الله عنهما إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير، وكان يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامة ثم يبكون، حتى كأن بين أيديهم جنازة.

قال ابن مسعود رضى الله عنه: السعيد من وُعظ بغيره، وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: إذا ذُكر الموتى، فعد نفسك كأحدهم.

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال: «كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر

---

(١) رواه الترمذى والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢١٠).

(٢) رواه ابن ماجه والحاكم، وحسنه الألبانى فى الصحيحة (١٣٨٤) بمجموع طرقه.

www.ibtesama.com

الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك[١].

• **أخى الحبيب:** إن المؤمن يذكر الموت دائمًا لأنه موعد لقاء الحبيب وهو لا ينسى موعد لقاء حبيبه (جل وعلا)، ولذا تراه يشتاق إلى الموت ليخرج من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين.. ولذا قال معاذ بن جبل رضى الله عنه عند موته: حبيبٌ جاء على فاقة.

فذكر الموت يجعل العبد دائمًا فى طاعة الله، ومن ثَم يقوده إلى حُسن الخاتمة.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (فإذا صحت فكرته أوجبت له البصيرة فهى نور فى القلب يبصر به الوعد والوعيد والجنة والنار وما أعد الله فى هذه لأوليائه وفى هذه لأعدائه فأبصر الناس وقد خرجوا من قبورهم مهطعين لدعوة الحق وقد نزلت ملائكة السماوات فأحاط بهم وقد جاء الله وقد نُصب كرسيه لفصل القضاء وقد أشرقت الأرض بنوره ووُضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء، وقد نُصب الميزان وتطايرت الصحف واجتمعت الخصوم وتعلق كل غريم بغريمه ولاح الحوض وأكوابه عن كثب وكثر العطاش وقل الوارد ونُصب الجسر للعبور ولُزَّ الناس إليه وقُسمت الأنوار دون الظلمة للعبور عليه والنار يحطم بعضها بعضًا تحته والمتساقطون فيها أضعاف الناجين فينفتح فى قلبه عين يرى بها ذلك ويقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة يُريه الآخرة ودوامها والدنيا وسرعة انقضائها).

(٥) الصدق:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١١٩).

قال ﷺ: «وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صدّيقًا»[٢]، وتالله إن تلك المنزلة لا يوفَق إليها إلا من أراد الله به خيرًا فى دينه ودنياه، وإلا لمن علم الله أنه سيموت على الإيمان والصدق.

وهذا مثل قول النبى ﷺ فى أهل بدر: «لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[٣]. وبالفعل فقد ماتوا جميعًا على التوحيد.

---

(١) أخرجه البخارى (٨١) كتاب الرقاق ـ والترمذى (٣٧) الزهد.

(٢) أخرجه مسلم وأحمد والترمذى ـ صحيح الجامع (٤٠٧١).

(٣) أخرجه مسلم عن على (١٦/ ٨٢ ـ ح ١٦١) فضائل الصحابة.

www.ibtesama.com

* عن شداد بن الهاد رضى الله عنه أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبى ﷺ فآمن به واتبعه ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبى ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزوة غنم النبى ﷺ سبيًا فقسم وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه فقال: ما هذا؟ قالوا: قِسْمٌ قسمه لك النبى ﷺ فأخذه فجاء به إلى النبى ﷺ فقال: ما هذا؟ قال: «قسمته لك» قال: ما على هذا تبعتك، ولكن اتبعتك على أن أُرمى ها هنا، وأشار إلى حلقه ـ بسهم فأدخل الجنة، فقال: «إن تصدق الله يصدقك».

فلبثوا قليلاً ثم نهضوا فى قتال العدو، فأُتى به النبى ﷺ يحمل قد أصابه السهم حيث أشار. فقال النبى ﷺ: «أهو هو»، قالوا: نعم. قال: «صدق الله فصدقه».

ثم كفَّنه النبى ﷺ فى جُبة النبى ﷺ ثم قدمه فصلى عليه فكان فيما ظهر من صلاته: «اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً فقُتل شهيداً، أنا شهيد على ذلك»(١).

ـ يقول «أنس بن مالك» غاب عمى «أنس بن النضر» عن قتال يوم بدر فقال غبت عن أول قتال مع رسول الله ﷺ لئن أشهدنى الله قتالاً ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون ـ انهزموا ـ فقال: اللهم إنى أبرأ إليك مما فعل هؤلاء ـ يعنى المشركين ـ وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المسلمين ـ ثم مشى بسيفه فلقيه (سعد بن معاذ) فقال: أى سعد،والله إنى لأجد ريح الجنة دون أحد! ثم قاتل حتى قُتل، فقال سعد يا رسول الله ﷺ ما استطعت أن أصنع ما صنع. قال أنس ابن مالك: فوجدناه بين القتلى وبه بضع وثمانون جراحة بين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم،فما عرفناه حتى جاءت أخته فعرفته ببنانه ـ رؤوس الأصابع ـ قال أنس فكنا نتحدث أن هذه الآية: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً....﴾ نزلت فيه وفى أصحابه(٢).

ـ وفى رواية أنه لما شاع خبر مقتل النبى ﷺ انهارت الروح المعنوية أو كادت تنهار فى نفوس كثير من أصحاب النبى فتوقف منهم مَن توقف عن القتال وألقى أسلحته مستكينًا ومر بهؤلاء أنس بن النضر وقد ألقوا ما بأيديهم فقال: ما تنتظرون؟ فقالوا: قُتل

(١) رواه النسائى والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٤١٥).

(٢) تفسير ابن جرير الطبرى ٢٠/ ٨٥ وأسباب النزول للواحدى ١٣٧، والحديث متفق عليه عن أنس، أخرجه البخارى برقم (٤٠٤٧)، ورواه مسلم، باب فى قوله تعالى ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾. كتاب الجهاد.

www.ibtesama.com

رسول الله ﷺ ، قال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله. ثم قال: اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المسلمين ـ وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المشركين ـ ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ فقال أين يا أبا عمر؟ فقال أنس واها لريح الجنة يا سعد إنى أجده دون أُحد... ثم مضى فقاتل القوم حتى قُتل فما عُرف حتى عرفته أخته بعد نهاية المعركة ببنانه وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم(١).

فهذا أنس بن النضر رضى الله عنه يقوده صدقه إلى تلك الخاتمة السعيدة فيجد ريح الجنة قبل أن يقاتل.

* بل قال ﷺ: «من سأل الله الشهادة بصدق بلَّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»(٢).

وهكذا فإن العبد إذا صدق مع الله فإن الله يحفظ عليه إيمانه ويثبت قلبه على التوحيد ويرزقه حُسن الخاتمة.

(٦) حسن الظن بالله (جل وعلا):

وهذا من أعظم أسباب حُسن الخاتمة.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: أنا عند ظن عبدى بى، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر»(٣).

* وعن جابر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاث يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»(٤).

* وقال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: إذا أحب عبدى لقائى أحببت لقاءه، وإذا كره لقائى كرهت لقاءه»(٥).

* وعن أنس أن النبى ﷺ دخل على شاب وهو فى الموت، فقال له: «كيف تجدك؟»،

---

(١) أخرجه البخارى برقم (٤٠٤٨) ومسلم فى كتاب الإمارة رقم (١٩٠٣/ ١٤٨).

(٢) أخرجه مسلم والترمذى والنسائى وأبو داود ـ صحيح الجامع (٦٢٧٦).

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم ـ صحيح الجامع (١٩٠٥).

(٤) أخرجه مسلم (١٧/ ٢٠٩) صفة الجنة.

(٥) أخرجه البخارى وأحمد ومالك والنسائى عن أبى هريرة.

www.ibtesama.com

قال: أرجو الله وأخاف ذنوبى، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجوه وأمّنه مما يخاف»(١).

والرجاء عند الموت أفضل؛ لأن الخوف سوط يساق به، وعند الموت يقف البصر فينبغى أن يتلطف به، ولأن الشيطان يأتى حينئذ بسخط العبد على الله فيما يجرى عليه، ويخوفه فيما بين يديه، فحسن الظن أقوى سلاح يدفع به العدو.

وقال سليمان التيمى لابنه عند الموت: يا بنى! حدثنى بالرُّخص، لعلىّ ألقى الله تعالى وأنا أُحسن الظن به(٢).

ـ قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: «إنما العالم الذى لا يقنّط الناس من رحمة الله ولا يؤمنهم مكر الله».

ـ ويقول ابن مسعود رضى الله عنه: «ليغفرن الله عز وجل يوم القيامة مغفرة لم تخطر على قلب بشر».

ـ وروى أن مجوسيًا استضاف إبراهيم الخليل عليه السلام فلم يُضفه وقال: إن أسلمت أضفتك فأوحى الله تعالى إليه: يا إبراهيم منذ تسعين سنة أطعمه على كفره فسعى إبراهيم عليه السلام خلفه فردّه وأخبره فى الحال فتعجب من لطف الله تعالى فأسلم(٣).

ـ فهذه الأشياء والأخبار هى التى تجتلب بها روح الرجاء إلى قلوب الخائفين واليائسين، فأما الحمقى المغرورون فلا ينبغى أن يسمعوا شيئًا من ذلك إلا قليلاً لئلا يغتروا بحلم الله فيجترئوا على محارم الله.

ـ وعن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بالذى عند الله من العذاب لم يأمن من النار»(٤).

بل هذا رجل من بنى إسرائيل يقص النبى ﷺ قصته فيقول: «إن رجلاً حضره الموت

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٦١) الزهد، وحسنه الألبانى فى الصحيحة (١٠٥١).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٤٧٨) ط. دار ابن رجب.

(٣) ذكرها الغزالى فى الإحياء (٤/ ١٥٣، ١٥٤) بصيغة التضعيف قيل. ولم يذكر لها سندًا ولا أصلاً.

(٤) متفق عليه عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (١٧٦٣) الصحيحة (١٦٣٤).

www.ibtesama.com

فلما أيس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مُتّ فاجمعوا لى حطبًا كثيرًا جزلاً ثم أوقدوا فيه نارًا حتى إذا أكلت لحمى وخلصت إلى عظمى فامتُحشت ـ فاحترقت ـ فخذوها فاطحنوها ثم انظروا يومًا راحًا فازروها فى اليم.. ففعلوا ما أمرهم فجمعه الله وقال له: لِمَ فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك فغفر له».

وفى رواية: «فجمعه الله فقال: ما حملك؟ قال: مخافتك فتلقاه برحمته»(١).

وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يخرجُ من النار أربعةٌ يُعرضونَ على الله عز وجل فيأمرُ بهم إلى النار فيلتفتُ أحدهم فيقولُ: أى ربِّ قد كنتُ أرجو إن أخرجتنى منها أن لا تعيدنى فيها فيقول: فلا نعيدك فيها»(٢).

ـ فيا أخى المسلم أَحسِن الظن بالله ولا تموتَن إلا وأنت تحسن الظن بالله فهو حبيبك وهو راحمك وهو ربك وهو رازقك.

فلا ترجُ غيره ولا تطمع فى رحمة مَن سواه والجأ إليه وتب إليه فإنه يحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الأوابين(٣).

ـ والجأ إليه سبحانه وتعالى وقل بلسان الحال والمقال:

لبثت ثوب الرجا والناس قد رقدوا ... وقمت أشكو إلى مولاى ما أجدُ

فقلت يا أملى فى كل نائبة ... ومَن عليه لكشف الضر أعتمدُ

أشكو إليك ذنوبًا أنت تعلمها ... ما لى على حَملها صبرٌ ولا جَلَدُ

وقد مددت يدى بالذل مبتهلاً ... إليك يا خير من مُدّت إليه يدُ

فلا تردّنها يا رب خائبةً ... فبحر جودك يروى كل من يردُ

(٧) التوبة:

قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور:٣١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

(١) متفق عليه عن حذيفة وأبى مسعود ـ صحيح الجامع (٢٠٧٤).

(٢) أخرجه مسلم وأحمد واللفظ له.

(٣) صدقوا ما عاهدوا/ للمصنف (ص: ١٤١).

www.ibtesama.com

نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم:٨).

فعن أبى سعيد الخدرى أن نبى الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعةً وتسعينَ نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على راهب فأتاه، فقال: إنه قتل تسعةً وتسعينَ نفسًا، فهل له من توبة، فقال: لا. فقتله فكمَّل به مائةً ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على رجُلٍ عالـمٍ، فقـال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحولُ بينه وبين التَّوبة؟! انطلق إلى أرض كذا وكَذا، فإن بها أُناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرضُ سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاهُ الموتُ، فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكةُ الرحمة: جاء تائبًا مُقبلاً بقلبه إلى الله. وقالت ملائكةُ العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قطُّ، فأتاهم ملكٌ فى صورةِ آدميٍّ فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى، فهو له... فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد، فقبضته ملائكةُ الرحمة. قال قتادة: فقال الحسنُ: ذُكرَ لنا أنه لما أتاه الموتُ نأى بصدره. وفى رواية: «فأوحى الله إلى هذه: أن تقربى، وأوحى إلى هذه: أن تباعدى. وقال: قيسوا ما بينهما فوجداه إلى هذه أقرب بشبر فغُفر له»(١).

(فسبحان الله) يُسخِّر الله عز وجل الأرض كلها بجبالها وأنهارها وكل ما عليها لكى تتحرك من أجل تائبٍ واحد فكيف لو تاب المسلمون جميعًا؟!!!

وقال ﷺ: «إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»(٢).

وقال ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»(٣).

فمن تاب ومات على تلك التوبة فقد رزقه الله حُسن الخاتمة؛ لأنه يُبعث تائبًا يوم القيامة من كل الذنوب.. كما قال ﷺ: «من مات على شىء بعثه الله عليه»(٤).

* * *

(١) أخرجه مسلم عن أبى سعيد ـ كتاب التوبة ـ باب قبول التوبة.

(٢) رواه الترمذى وأحمد والحاكم، وصححه ووافقه الذهبى وحسنه الألبانى.

(٣) رواه ابن ماجه عن ابن مسعود ـ صحيح الجامع (٣٠٠٨).

(٤) رواه أحمد والحاكم عن جابر ـ صحيح الجامع (٦٥٤٣).

www.ibtesama.com

• وأما عن شروط التوبة فهى ستة:

١ ـ الإقلاع عن الذنوب.

٢ ـ الندم على فعل تلك الذنوب.

٣ ـ العزم على أن لا يعود إليها أبداً.

٤ ـ الإخلاص فى التوبة.

٥ ـ التحلل من المظالم.. لقوله ﷺ: «من كان لأخيه عنده مظلمة من مالٍ أو عرض فليتحلله اليوم من قبل ألا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات»(١).

٦ ـ التوبة قبل الغرغرة وقبل طلوع الشمس من مغربها: قال ﷺ: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»(٢).

وقال ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»(٣).

(٨) الدعاء:

وذلك بأن تتوجه إلى الله (عز وجل) بالدعاء وتبكى وتتذلل بين يديه سبحانه بأن يثبت قلبك على الإيمان وأن يرزقك حُسن الخاتمة.

فها هو حبيبك ﷺ كان لا يفتر لسانه عن هذا الدعاء: «يا مقلب القلوب ثبِّت قلبى على دينك»(٤).

وها هو الحق (جل جلاله) يعلمنا ويحثنا على أن ندعو بهذا الدعاء العظيم ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران:٨).

فاعلم أخى الحبيب أنه لا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه فالجأ إلى الله فى كل وقت وارفع أكفّ الضراعة إلى الملك قائلاً: اللهم إنى أبرأ من الثقة إلا بك ومن الأمل إلا فيك ومن التسليم إلا لك ومن التفويض إلا إليك، ومن التوكل إلا عليك، ومن الرضا إلا

(١) أخرجه البخارى (٥/ ١٠١) المظالم.

(٢) أخرجه مسلم (١٧/ ٧٦) كتاب التوبة.

(٣) رواه أحمد فى المسند (٩/ ١٧: ١٨) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

لم يغرغر: أى لم تبلغ روحه الحلقوم.

(٤) رواه الترمذى عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٨٧).

www.ibtesama.com

عنك، ومن الطلب إلا منك، ومن الصبر إلا على بابك، ومن الذل إلا فى طاعتك، ومن الرهبة إلا لجلالك العظيم، ومن الرجاء إلا لما فى يديك الكريمتين.

فتوجه إلى الله (عز وجل) بالدعاء فى ثلث الليل الأخير أن يرزقك حُسن الخاتمة وأن يكرمك بصحبة النبى ﷺ فى الجنة، وأن لا يحرمك من نعمة النظر إلى وجهه الكريم (سبحانه وتعالى).

(٩) قصر الأمل والتفكر فى حقارة الدنيا:

قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد:٢٠).

وقال ﷺ: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه أو عالمًا أو متعلمًا»(١).

فالمؤمن يعلم يقينًا أن الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة، وأنه سينسى كل شقاء بغمسة واحدة فى جنة الرحمن (جل وعلا)، ولذلك فهو لا يتعلق قلبه بأى شىء من حطام الدنيا، بل يمسى ويصبح وهو مشغول بالعمل لهذا الدين ولا يرى أمام عينيه إلا الجنة والنار فهو يعلم يقينًا أنه لا راحة إلا فى جنة العزيز الغفار.

واعلم أن السبب فى طول الأمل شيئان:

أحدهما: حب الدنيا، والثانى: الجهل.

أما حب الدنيا فإن الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها، ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئًا دفعه عن نفسه، والإنسان مشغول بالأمانى الباطلة، فيمنى نفسه أبدًا بما يوافق مراده من البقاء فى الدنيا. وأصل هذه الأمانى كلها، حبُّ الدنيا والأنس بها، والغفلة عن قول النبى ﷺ: «أحبب ما شئت فإنك مفارقه»(٢).

السبب الثانى: الجهل، وهو أن الإنسان يعول على شبابه، ويستبعد قرب الموت مع الشباب.

---

(١) رواه ابن ماجه والطبرانى فى الأوسط، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤١٤).

(٢) رواه الشيرازى والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٣).

www.ibtesama.com

* والناس متفاوتون فى طول الأمل تفاوتًا كثيرًا، ومنهم من يأمل البقاء إلى زمان الهرم، ومنهم من لا ينقطع أمله بحال، ومنهم من هو قصير الأمل.

وعن إبراهيم بن سبط قال: قال لى أبو زرعة: لأقولن لك قولاً ما قلته لأحد سواك: ما خرجت من المسجد منذ عشرين سنة، فحدثتنى نفسى أن أرجع إليه.

وقيل لبعضهم: ألا تغسل قميصك؟ قال: الأمر أعجل من ذلك.

وقد ورد الشرع بالحث على العمل والمبادرة إليه ففى «صحيح البخارى» عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»(١).

وعنه: أن رسول الله ﷺ قال لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك»(٢).

وقال عمر رضى الله عنه: التؤدة فى كل شىء خير، إلا ما كان من أمر الآخرة.

وكان الحسن يقول: عجبًا لقوم أُمروا بالزاد، ونودى فيهم بالرحيل، وحُبس أولهم على آخرهم، وهم قعود يلعبون.

وكانوا يبادرون بالأعمال غاية ما يمكن، فكان ابن عمر يقوم فى الليل فيتوضأ ويصلى، ثم يغفى إغفاء الطير، ثم يقوم فيتوضأ ويصلى، ثم يغفى إغفاء الطير، ثم يقوم يصلى، يفعل ذلك مرارًا... وكان عمير بن هانئ يسبح كل يوم مائة ألف تسبيحة، وقال أبو بكر بن عياش: ختمت القرآن فى هذه الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة(٣).

* فمن انشغل بآخرته عن دنياه كانت همته فى الطاعة عالية... وهذا من أعظم السُبل إلى حُسن الخاتمة.

(١٠) البعد عن أسباب سوء الخاتمة:

وأخيرًا فإن من أسباب حُسن الخاتمة: الخوف من سوء الخاتمة والبُعد عن أسبابها «وهى مذكورة بالتفصيل فى كتيب آخر بعنوان الخوف من سوء الخاتمة».

---

(١) أخرجه البخارى (٨١) الرقاق ـ والترمذى (٣٧) الزهد.

(٢) رواه الحاكم والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٧٧).

(٣) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٤٧٢: ٤٧٥) بتصرف شديد.

www.ibtesama.com

أما عن أسباب سوء الخاتمة فهى:

١ ـ فساد المعتقد والانغماس فى البدع.

٢ ـ النفاق ومخالفة الباطن للظاهر.

٣ ـ التسويف بالتوبة.

٤ ـ طول الأمل وحب الدنيا.

٥ ـ تعلق القلب بغير الله.

٦ ـ إلف المعاصى والإصرار عليها.

٧ ـ الانتحار واليأس من رحمة الله.

٨ ـ مصاحبة أهل الفساد.

٩ ـ عدم الاستقامة على الطاعة.

• خاتمة السعادة للأنبياء والصحابة والتابعين •

وها هى صور مشرقة من حُسن الخاتمة للأنبياء (صلوات ربى وسلامه عليهم) الذين اصطفاهم الحق (جل وعلا) وصنعهم على عينه... والصحابة الذين حملوا أمانة هذا الدين العظيم للكون كله... والتابعين الذين ساروا على نهج الحبيب ﷺ وأصحابه (رضى الله عنهم).

• موت النبيين (عليهم الصلاة والسلام) •

• آدم عليه السلام:

* عن أُبىّ بن كعب رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «لما تُوفى آدم غسّلته الملائكة بالماء وترًا، وألحدوا له، وقالوا: هذه سنة آدم فى ولده»[١].

• موت خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام):

فى كتاب «فتح البارى» لابن حجر: أتى ملك الموت إبراهيم (عليه السلام) ليقبض روحه، فجلس أمامه.

---

(١) رواه الحاكم والطبرانى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٢٠٧).

www.ibtesama.com

قال: ماذا تريد؟

قال: أقبض روحك.

قال: وهل خليل يقبض روح خليله؟

فقال المَلَك: وهل رأيت خليلاً يكره لقاء خليله!

فسكتِ إبراهيم عليه السلام فقُبضت روحه».

• موت الحبيب ﷺ:

* عن عائشة رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبىّ يمرض إلا خُيِّر بين الدنيا والآخرة».

قالت: فلما كان فى مرضِ النبى ﷺ الذى قُبض فيه، أخذته بُحَّة شديدة، فسمعته يقول: ﴿مع الذين أنعم اللهُ عليهم من النبيين والصديقين والشهداءِ والصالحين﴾ (النساء:٦٩)، فعلمت أنه قد خُيِّر»[١].

* وعن أنس رضى الله عنه: «لما ثقل النبى ﷺ جعل يتغشاه[٢]، فقالت فاطمة عليها السلام: واكربَ أبتاه، فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم»، فلما مات قالت: يا أبتاه، أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه، مَنْ جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه، فلما دُفن قالت فاطمة عليها السلام: يا أنس، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟!»[٣].

• عثمان بن عفان (رضى الله عنه):

* عن مسلم أبى سعيد مولى عثمان: إن عثمان بن عفان رضى الله عنه أعتق عشرين مملوكًا له، ودعا بسراويل فشدّها عليه ـ ولم يلبسها فى جاهلية ولا إسلام ـ وقال: إنى رأيت رسول الله ﷺ البارحة فى المنام ورأيت أبا بكر وعمر، وإنهم قالوا: اصبر، فإنك تفطر عندنا القابلة، ثم دعا بمصحف فنشره بين يديه فقُتل وهو بين يديه[٤].

---

(١) أخرجه البخارى (٥/ ١٨١) التفسير.

(٢) أى: يغشاه الثقل شيئًا فشيئًا.

(٣) رواه البخارى فى «كتاب المغازى» باب مرض النبى ﷺ ووفاته (٥/ ١٤٤).

(٤) قال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٣٢): رواه عبد الله وأبو يعلى فى «الكبير» ورجالهما ثقات.

www.ibtesama.com

• علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه):

عن محمد بن على بن أبى طالب أن عليًا لما ضُرِب أوصى بنيه، ثم لم ينطق إلا بـ «لا إله إلا الله» حتى قبضه الله[١].

• سعد بن أبى وقاص (رضى الله عنه):

عن ابن شهاب الزهرى أن سعد بن أبى وقاص لما حضرته الوفاة، دعا بخَلَق جبة له من صوف، فقال: كفِّنونى فيها، فإنى لقيت المشركين فيها يوم بدر، وإنما كنتُ أُخبِّئُها لهذا اليوم[٢].

وعن مصعب بن سعد أنه قال: كان رأس أبى فى حجرى، وهو يقضى. فبكيت، فرفع رأسه إلىّ، فقال: أى بنىّ ما يبكيك؟ قلت: لمكانك وما أرى بك. قال: لا تبك فإن الله لا يعذبنى أبدًا، وإنى من أهل الجنة.

قال الذهبى: صدق والله، فهنيئًا له[٣].

• مرحبًا بالموت مرحبًا •

* عن عمرو بن قيس: أن معاذ بن جبل لما حضره الموت قال: انظروا أصبحنا؟ قال: فقيل: لم نصبح، حتى أُتِىَ فقيل له: قد أصبحت. قال: أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار. مرحبًا بالموت. مرحبًا، زائر مُغِبّ[٤] حبيب جاء على فاقة، اللهم إنك تعلم أنى كنت أخافك، فأنا اليوم أرجوك. اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى[٥] الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات[٦]، ومزاحمة العلماء بالرُّكب عند حِلق الذكر»[٧].

* * *

(١) الثبات عند الممات (ص: ١٠٣).

(٢) وصايا العلماء عند حضور الموت (ص: ٤٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ١٢٢).

(٤) أى: قليل الزيارة.

(٥) كرى الأنهار أى: حفرها.

(٦) أى: صيام نهار الصيف، وقيام ليل الشتاء.

(٧) «الزهد» لأحمد (٢/ ١١٦)، و«حلية الأولياء» (١/ ٢٣٩).

www.ibtesama.com

• غداً نلقى الأحبة... محمداً وحزبه •

* عن سعيد بن عبد العزيز: «قال بلال حين حضرته الوفاة: غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه. قال: تقول امرأته: وابلالاه. قال: يقول هو: وافرحاه»[١].

• أمنية غالية •

* عن سعيد بن أبي وقاص أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد: ألا تدعو الله فخلوا في ناحية فدعا عبد الله ابن جحش فقال: «يارب إذا لقيت العدو غداً فلقّني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده، فأقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً قلت: يا عبد الله: مَنْ جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت. قال سعد: لقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط»[٢].

• (جعفر) يطير مع الملائكة في الجنة •

ففي غزوة مؤتة استُشهد جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) وثلاثة آلاف من الأبطال والشجعان، من حملة القرآن، أمام عَبَدة الصُلبان، عليهم لعائن الرحمن، في ذلك الزمان، وفي كل أوان.

فالتقى الناس فاقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم، ثم أخذها جعفر فقاتل القوم حتى قُتل.

اقتحم جعفر عن فرس له شقراء، ثم عقرها؛ فكان جعفر أول المسلمين عَقَرَ في الإسلام، ثم قاتل القوم حتى قُتل وهو يقول:

يا حبَّذا الجنة واقترابها ... طيبةً وباردٌ شرابها

والروم رومٌ قد دنا عذابها ... كافرة بعيدة أنسابها

عليّ إنْ لاقيتها ضِرابها

قال ابن هشام:

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٥٩).

(٢) قال الهيثمي في المجمع (١/ ٣٠٢): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

www.ibtesama.com

وحدثنى من أثق به من أهل العلم أن جعفرًا أخذ اللواء بيمينه فقُطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قُتل، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين فى الجنة يطير بهما حيث يشاء.

وعن نافع أن ابن عمر أخبره: وقفت على جعفر يومئذ وهو قتيلٌ فعددتُ به خمسين طعنةٍ وضربةٍ، ليس منها شىءٌ فى دُبُرِه، يعنى فى ظهره»[١].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة البارحة فنظرت فيها، فإذا جعفر يطير مع الملائكة، وإذا حمزة متكئ على سريره»[٢].

«وكان ابن عمر إذا حيّا ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذى الجناحين»[٣].

قال ابن كثير: «لأن الله تعالى عوضه عن يديه بجناحين فى الجنة»[٤].

• اليوم نلقى حبيبنا محمدًا ﷺ •

وها هى خاتمة السعادة للصحابى الجليل عمار بن ياسر (رضى الله عنهما) الذى شهد له النبى ﷺ بأن الجنة اشتاقت إليه.

قال ﷺ: «إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: علىّ وعمار وسلمان»[٥].

وعن أبى البخترى قال: قال عمَّار يوم صفين: ائتونى بشربة لبن، قال: فشرب، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ آخر شربةٍ تشربها من الدنيا شربةُ لبنٍ» ثم تقدم فقُتل[٦].

وعن الزهرى: عن أبيه، عمَّن حدثه: سمع عمارًا بصفِّين يقول: أزفت الجنان، وزُوجت الحور العين. اليوم نلقى حبيبنا محمدًا ﷺ[٧].

* * *

(١) أخرجه البخارى (٤٢٦٠) عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ.
(٢) رواه الطبرانى فى الكبير والحاكم ـ صحيح الجامع (٣٣٥٨).
(٣) رواه البخارى (٣٧٠٩) المغازى.
(٤) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٢٥٦).
(٥) رواه الترمذى والحاكم عن أنس وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٩٨).
(٦) أخرجه أحمد (٤/ ٣١٩) وابن سعد (٣/ ١/ ١٨٤) والحاكم (٣/ ٣٩٨).
(٧) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٤٢٥).

www.ibtesama.com

• عرش الرحمن يهتز لموته •

فها هو سعد بن معاذ يهتز لموته عرش الرحمن ـ جل جلاله ـ.

قال ﷺ «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ»(١).

وعن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: لما توفى سعد بن معاذ صاحت أمه فقال النبى ﷺ ألا يرقا دمعُك ويذهب حزنُك بأن ابنك أولُ من ضحك الله له واهتز له العرش؟(٢).

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ «هذا العبد الصالح الذى تحرك له العرش، وفُتحت أبواب السماء، وشهده سبعون ألفًا من الملائكة لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك، لقد ضُمَّ ضَمَّةً ثم أُفرج عنه» يعنى سعدًا(٣).

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أنه أُهدى لرسول الله ﷺ جُبةٌ من سندس، وكان ينهى عن الحرير، فعجب الناس منها، فقال: «والذى نفسُ محمدٍ بيده! إن مناديل سعد بن معاذ فى الجنة، أحسنُ من هذا»(٤).

قال الإمام النووى ـ رحمه الله ـ: قال العلماء هذه إشارة إلى عظيم منزلة سعد فى الجنة، وأن أدنى ثيابه فيها خير من هذه؛ لأن المنديل أدنى الثياب؛ لأنه مُعد للوسخ والامتهان فغيره أفضل، وفيه إثبات الجنة لسعد(٥).

• من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه •

ـ يقول «أنس بن مالك» غاب عمى «أنس بن النضر» عن قتال يوم بدر فقال غبت عن أول قتال مع رسول الله ﷺ لئن أشهدنى الله قتالاً ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أُحد انكشف المسلمون ـ انهزموا ـ فقال: اللهم إنى أبرأ إليك مما فعل هؤلاء ـ يعنى

(١) متفق عليه عن جابر ـ وأخرجه مسلم وأحمد عن أنس.

(٢) قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٠٩) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبى فى تلخيصه.

(٣) أخرجه النسائى (٤/ ١٠٠) فى الجنائز: باب ضمة القبر وضغطه، وابن سعد (٣/ ٢/ ٩) ـ وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٩٨٧).

(٤) أخرجه مسلم (٢٤٦٩) عن أنس ـ رضى الله عنه ـ.

(٥) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٣٤).

www.ibtesama.com

المشركين ـ وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المسلمين ـ ثم مشى بسيفه فلقيه (سعد بن معاذ) فقال: أى سعد، والله إنى لأجد ريح الجنة دون أحد! ثم قاتل حتى قُتل، فقال سعد يا رسول الله ﷺ ما استطعت أن أصنع ما صنع. قال أنس ابن مالك: فوجدناه بين القتلى وبه بضع وثمانون جراحة بين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، فما عرفناه حتى جاءت أخته فعرفته ببنانه ـ رؤوس الأصابع ـ قال أنس فكنا نتحدث أن هذه الآية: ﴿مِنَ الْمُؤمنينَ رِجَالٌ صدقُوا ما عَاهَدُوا الله عَلَيْهِ فمِنْهُم مَّن قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وماَ بَدَّلُوا تَبْديلاً..﴾ نزلت فيه وفى أصحابه[١].

• الله يكلمه بغير حجاب •

عن جابر بن عبد الله، قال: لما قُتل عبد الله بن عمرو بن حَرَام، يوم أُحد، قال رسول الله ﷺ: «يا جابر! ألا أخبرك ما قال الله ـ عز وجل ـ لأبيك؟» قلتُ: بلى، قال: «ما كلَّم الله أحدًا إلا من وراء حجاب، وكلَّم أباك كفاحًا[٢]، فقال: يا عبدى تمنَّ علىَّ أُعطك، قال: يارب تحيينى فأُقتلُ فيك ثانيةً. قال: إنه سبق منى «أنهم إليها لا يُرجعون» قال: يا رب فأبلغ مَن ورائى»، فأنزل الله ـ عز وجل ـ هذه الآية: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[٣].

وفى رواية: أن جابر قال: قال لي رسول الله ﷺ: يا جابر أما علمت أنَّ الله ـ عز وجل ـ أحيا أباك فقال له: تَمَنَّ علىَّ، فقال: أُردُّ إلى الدنيا فأُقتل مرةً أخرى فقال: إنى قضيت الحكمَ أنهم إليها لا يرجعون»[٤].

والمرء يَحَارُ من كرامة الشهيد على الله.

إن أبا جابر لم يستشعر وحشةً لفراق أولاده، ولم تَسْتشرِف نفسه للاطمئنان على فلذات كبده، بل تطلَّع للعودة إلى الدنيا كيما يذهل مرةً أُخرى عن أحبِّ شيءٍ فيها، ويتمشَّى بخُطى ثابتةٍ إلى ساحة القتال[٥].

---

(١) أخرجه البخارى برقم (٤٠٤٧)، ورواه مسلم، باب فى قوله تعالى ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾، كتاب الجهاد.

(٢) كفاحًا: أى مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول... وهذا بعد موته أما قبله فلا.

(٣) أخرجه الترمذى (٣٠١٣) وصححه الحاكم (٣/ ٢٠٤) ووافقه الذهبى.

(٤) رواه أحمد (٣/ ٣٦١) وقال العدوى فى فضائل الصحابة: هو صحيح لشواهده.

(٥) فى موكب الدعوة للشيخ محمد الغزالى (ص ٥٣).

www.ibtesama.com

• كأنى أنظر إليك تمشى برجلك هذه صحيحة فى الجنة •

لقد كان عمرو بن الجموح ـ رضى الله عنه ـ أعرج شديد العرج، وكان له أربعة أبناء شباب يغزون مع رسول الله ﷺ ، فلما توجه إلى أُحُد أراد أن يخرج معهم فقال له بنوه:إن الله جعل لك رخصة فلو قعدت ونحن نكفيك، وقد وضع الله عنك الجهاد فأتى عمرو رسول الله ﷺ فقال: إن بنَّى هؤلاء يمنعوننى أن أجاهد معك، ووالله إنى لأرجو أن أستشهد، فأطأ بعرجتى فى الجنة. فقال له رسول الله ﷺ: «أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد» وقال لبنيه: «وما عليكم أن تدعوه، لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة» فخرج مع رسول الله ﷺ ، فقُتل يوم أُحُد شهيداً»(١).

وفى رواية: أنه «أتى عمرو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ ، فقال: يا رسول الله! أرأيت إن قاتلتُ فى سبيل الله حتى أُقتل، أأمشى برجلى هذه صحيحة فى الجنة؟ وكانت رجله عرجاء، فقال رسول الله ﷺ: «نعم». فقُتل يوم أُحُد هو وابن أخيه ومولى له. فمر رسول الله ﷺ ، فقال: «كأنى أنظر إليك تمشى برجلك هذه صحيحة فى الجنة». فأمر رسول الله ﷺ بهما وبمولاهما فجُعلوا فى قبرٍ واحد(٢).

• فزت ورب الكعبة •

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: «لما طُعن حرام بن ملحان ـ وكان خاله ـ يوم بئر معونة قال بالدم هكذا، فنضحه على وجهه ورأسه، ثم قال: فزت وربِّ الكعبة»(٣).

• الملائكة تغسله •

وعن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عند قتل حنظلة ابن أبى عامر بعد أن التقى هو وأبو سفيان بن الحارث حين علاه شداد بن الأسود بالسيف فقتله، فقال رسول الله ﷺ:«إن صاحبكم تغسله الملائكة فسألوا صاحبته عنه ـ زوجته ـ فقالت: إنه خرج لما سمع الهائعة وهو جُنب، فقال رسول الله ﷺ: لذلك

(١) رواه ابن هشام (٢/ ١٣٩) عن ابن إسحاق، وبعضه فى المسند (٥/ ٢٩٩) من حديث أبى قتادة، وصحح الألبانى إسناده فى تحقيق فقه السيرة هامش (٢٨١).

(٢) قال الحافظ فى الفتح (٣/ ١٧٣): سنده حسن ـ رواه أحمد (٥/ ٢٩٩).

(٣) أخرجه البخارى (٧/ ٤٤٦) المغازى.

www.ibtesama.com

غسلته الملائكة»[١].

* ولم تكن هذه الكرامة لحنظلة دون غيره بل كانت لحمزة (رضى الله عنه) عم النبى ﷺ... فقد قال ﷺ «رأيت الملائكة تُغسِّل حمزة بن عبد المطلب وحنظلة بن الراهب»[٢].

• رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة •

قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (التحريم: ١١).

قال الحافظ: ومن فضائل آسية امرأة فرعون: اختارت القتل على المُلك، والعذاب فى الدنيا على النعيم الذى كانت فيه[٣].

قال ابن كثير: روى ابن جرير بسنده عن سليمان التيمى: كانت امرأة فرعون تُعذَّب فى الشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها فى الجنة.

قال ابن جرير: كانت امرأة فرعون تسأل: من غلب؟ فيقال: غلب موسى وهارون. فتقول: آمنت برب موسى وهارون. فأرسل إليها فرعون، فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها، فإن مضت على قولها فألقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهى امرأتى، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء، فأبصرت بيتها فى الجنة، فمضت على قولها، وانتُزعت روحها[٤].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: إن فرعون أوتد لامرأته أربعة أوتاد فى يديها ورجليها، فكان إذا تفرقوا عنها ظللتها الملائكة. فقالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (التحريم:١١). فكشف لها عن بيتها فى الجنة[٥].

---

(١) رواه الحاكم (٣/ ٢٠٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يُخرجاه وسكت عليه الذهبى - وقال الشيخ مصطفى العدوى فى فضائل الصحابة: إسناده حسن.

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٦٣).

(٣) فتح البارى (٦/ ٥١٦).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٣ - ٣٩٤).

(٥) رواه أبو يعلى (٦/ ٣٥) رقم (٢٥٠٨)، وصححه الألبانى فى الصحيحة رقم (٢٥٠٨).

www.ibtesama.com

• بشرى بالجنة من أرض الشرف والجهاد •

* عن أنس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض». فقال عمير: يا رسول الله، جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «نعم». قال: بَخٍ بَخٍ. فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قول: بخٍ بخٍ؟». قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها». فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه، فإنها لحياة طويلة. قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتل[١].

• (البراء) يقسم على الله فيبرّ الله قسمه •

قال ﷺ: «كم من أشعث أغبر ذى طِمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرَّه، منهم البراء ابن مالك»[٢].

وعن أنس مرفوعًا قال: «كم من ضعيف متضعف ذى طمرين لو أقسم على الله لأبرَّه منهم البراء بن مالك»[٣].

فلما كان يوم فتح «تُستر» وقد تحصَّن «الفُرس» فى إحدى القلاع فلم يستطع المسلمون فتحها فى أول الأمر، فذهبوا إلى البراء بن مالك وقالوا له: أقسم يا براء على ربك، فقال: «أقسمت عليك يارب لما منحتنا أكتافهم وألحقتنى بنبيى ﷺ فمُنحوا أكتافهم وقُتل البراء شهيدًا»[٤].

• شمس الدنيا... الإمام الشافعى •

قال الربيع بن سليمان: دخل المزنى على الشافعى فى مرضه الذى مات فيه فقال له: كيف أصبحت يا أستاذ؟

فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخوانى مفارقًا، ولكأس المنية شاربًا، وعلى الله

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٩٢) وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) رواه الترمذىّ والضياء عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥٧٣).

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٩٢) وصححه ووافقه الذهبى.

(٤) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٩٢) وصححه ووافقه الذهبى.

www.ibtesama.com

وارداً، ولسوء أعمالى ملاقيا.

قال: ثم رمى بطرفه نحو السماء واستعبر ثم أنشأ يقول:

إليكَ إلـه الخلـق أرفَـعُ رغبتـى ... وإن كنتُ ياذا المنِّ والجُودِ مجرمـا

ولمَّا قسى قلبـى وضـاقـت مذاهبُهُ ... جعلتُ الرجـا منـى لعفـوك سُلَّمـا

تعـاظمنـى ذنبـى فلمَّـا قرنتُـهُ ... بعفـوكَ ربى كـان عفـوك أعظمـا

وما زِلتَ ذا عفو عن الذنبِ لم تَزَلْ ... تجُـودُ وقـد أغـوى صفيك آدمَـا

فإن تعف عنى تعـف عن متمردٍ ... ظلومٍ غشوم مـا يزايـل مأثمـا

وإن تنتقـم منـى فلسـتُ بآيـسٍ ... ولو أدخلتَ نفسى بجرمى جهنمـا

فجرمى عظيمٌ من قديـم وحـادث ... وعفـوك ياذا العفـو أعلى وأجسما[1]

• ماتت فرحاً برؤية الكعبة •

* عن عبد العزيز بن أبى رواد قال: دخل قوم حُجَّاج ومعهم امرأة تقول: أين بيت ربى؟ فيقولون: الساعة ترينه فلما رأوه قالوا: هذا بيت ربك أما تَرينَه؟ فخرجت تشتدّ وتقول: بيت ربى بيت ربى. حتى وضعت جبهتها على البيت، فوالله ما رُفعت إلا ميتة[2].

• كيف أرفق بنفسى وأمامى عقبة لا يقطعها إلا الفائزون •

وها هى السيدة الربانية الصالحة نفيسة، ابنة الحسن بن زيد العلوية الحسنية: كانت ـ رحمها الله ـ من الصالحات، زاهدة نقية تقية، تقوم الليل، وتصوم النهار، وتكثر البكاء من خشية الله عز وجل، حتى قيل لها: «ترفقى بنفسك» لكثرة ما رأوا منها، فقالت: «كيف أرفق بنفسى وأمامى عقبة لا يقطعها إلا الفائزون؟»، حجّت ثلاثين مرة، وكانت تحفظ القرآن وتفسيره.

تُوفيت ـ رحمها الله تعالى ـ وهى صائمة، فألزموها الفطر، فقالت: «واعجباه! أنا منذ ثلاثين سنة أسأل الله تعالى أن ألقاه صائمة، أأفطر الآن؟! هذا لا يكون، وخرجت

(١) المنهج الأحمد/ (١/ ١٢٦: ١٢٧).

(٢) صفة الصفوة/ (٤/ ٤١٥).

www.ibtesama.com

من الدنيا، وقد انتهت قراءتها إلى قوله تعالى: ﴿قل لمن ما فى السماوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة﴾ (الأنعام:١٢)[١].

• يختم القرآن فى قبره قبل أن يموت •

عن عبد الله بن مسلم العبدى قال: قال مطرف لما حضره الموت: اللهم خِرْ لى فى الذى قضيته علَىَّ من أمر الدنيا والآخرة. قال: وأمرهم بأن يحملوه إلى قبره فختم فيه القرآن قبل أن يموت[٢].

• النور يخرج من قبره •

وحكى الشيخ القحطانى: أنه أنزل رجلاً فى قبره فى ليلة ظلماء شديدة الظلمة، وكان الجو غائمًا، وكان هذا الرجل من الدعاة، وقد مات ليلة الجمعة بعملية جراحية وصلى عليه الشيخ عبد العزيز بن باز (رحمه الله)، فقد كان له محاضرة فى الجامع الكبير الذى أحضر إليه الميت، وبعد المحاضرة ذهبنا للمقبرة، وطلبنا من أحد الإخوة أن يأتينا بسراج، أو كشاف لكى ننور القبر، ولكنه أبطأ علينا، فأخذت أعسُّ اللحد بيدى فقلت للإخوة: أعطونا الميت، فلما سللته من جهة الرجلين وضعته فى قبره فككت تلك الأربطة وكشفت عن وجه الميت، وإذا بالمصابيح والأنوار خرجت من ذلك القبر، وأنار القبر، ورآه كل من كان معى، وكانت رائحة المسك تخرج من ذلك القبر، ثم ذكر الشيخ بعض من حضروا وشاهدوا ذلك الأمر.

• مع الذين أنعم الله عليهم •

وقال محمد بن راشد: رأيت عبد الله بن المبارك فى النوم بعد موته فقلت: أليس قد مُتَّ؟ قال: بلى. قلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لى مغفرة أحاطت بكل ذنب. قلت: فسفيان الثورى؟ قال: بخٍ بخٍ ذاك ﴿مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا﴾[٣].

---

(١) مرآة النساء/ (ص: ٨٢).

(٢) المحتضرين/ لابن أبى الدنيا (ص: ١٥٦).

(٣) العاقبة/ (ص: ١٣١).

www.ibtesama.com

• أهلاً بصديقى وحبيبى •

قال فى تذكرة الإخوان: حدثنى صاحب لنا أنه مات رجل فى قريتهم، وكان مؤذنًا للقرية ولا يأخذ على ذلك أجرًا، وكانت له مزرعة لا يمنع أحدًا الأكل منها لا من إنسان ولا من حيوان، وكان كثير الصدقة، فمرض قبل موته لمدة أربعة أيام، وعند احتضاره اجتمعنا، وكان لا يكلمنا ويردد: استغفر الله لا إله إلا الله، وفجأة رفع يده فى الهواء كأنه يصافح أحدًا وهو يقول: أهلاً بصديقى وحبيبى ثم مات (رحمه الله).

• ومسك الختام (أمى الحبيبة) [1] •

كانت أمى (رحمة الله عليها) عابدة زاهدة لا تطمع فى أى شىء من حُطام الدنيا الفانية... كنت إذا رأيتها تذكرت قول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ (الفرقان: ٦٣).. كانت تصلى قيام الليل على الرغم من شدة مرضها، وكانت تحب الخير لكل من حولها، وكان لسانها لا يفتر عن ذكر الله.

مات أبوها وهى فى بطن أمها، وماتت أمها بعد ولادتها بشهر واحد فتجرعت غُصص اليُتم، وذاقت من العذاب ألوانًا، ولم يكن لها أخٌ أو أخت فعاشتً كل أنواع الغُربة.

وعلى الرغم من ذلك كان لسانها لا يفتر عن كلمة «الحمد لله»... وكانت تدعو دائمًا ألا تطول عليها السكرات، فلما جاء اليوم الموعود سمعت أذان العصر فقامت لتتوضأ فما غسلت إلا كفها ووجهها، فقالت لها ابنة أختى: «يا ستى أنت ما توضأتى» فقالت لها أمى: «والله يا ابنتى ما تركونى حتى وضؤنى» فتعجبت ابنة أختى!! وقامت أمى لتصلى العصر وهى جالسة ـ لشدة مرضها ـ ثم لما أرادت أن تكبِّر مرة أخرى قالت لها ابنة أختى: «يا ستى ليس هناك صلاة بعد العصر». فقالت لها أمى: «بل هناك صلوات كثيرة بس يا ريت الوقت يسمح» ودخلت فى الصلاة وجاءتها السكرات وماتت وهى تصلى وكنا نلقّنها كلمة: «لا إله إلا الله» فكانت تقولها وظلت ترددها حتى ماتت.

وإذا بالمفاجأة السعيدة: فعلى الرغم من كِبر سنها إلا أن وجهها عاد ناصعًا وكأنها ابنة

(١) أى أمى أنا (محمود المصرى).

www.ibtesama.com

عشرين سنة، وإذا بالوجه تعلوه ابتسامة جميلة وكأنها ترى الجنة فى تلك اللحظة. وإذا بالبشائر العظيمة ـ التى لا أستطيع أن أذكرها ـ تخبر بها الأخت التى قامت بتغسيلها... وإذا بالصالحين يجمعهم الله على غير موعد ويمتلئ المسجد للصلاة عليها، وذهبنا إلى القبر ونزلت لأدفن حبيبتى ـ التى نزف قلبىٌ بموتها الدماء بدل الدموع ـ وإذا برائحة جميلة تصدر من قبرها.

وتتوالى البُشريات العظيمة فيعلم العلماء والدعاة فى مصر بخبر موت أمى فيدعون لها فى صلاة الجمعة وكان على رأسهم فضيلة الشيخ/ محمد حسان، وأبو إسحاق الحوينى، ومحمد عبد المقصود، وفوزى السعيد، وسيد حسين العفانى وغيرهم من علماء الأمة ـ جزاهم الله خير الجزاء ـ فكان هؤلاء الأفاضل يدعون لها وآلاف البشر يؤمِّنون على دعائهم... فرأيتها فى المنام فى تلك الليلة وهى تقول: جزاك الله يا بنى خير الجزاء على كل الخير الذى وصلنى.

فأسأل الله أن يرحم أمى رحمة واسعة ـ وكل موتى المسلمين ـ وأن يجمعنى بها فى جنته ومستقر رحمته.

وأسأل الله (جل وعلا) أن يرزقنى وإياكم حُسن الخاتمة وأن يجمعنا جميعًا فى جنته إخوانًا على سُررٍ متقابلين.

وأُشهد الله (عز وجل) على أنى أحبكم جميعًا فى الله... فمن أحبنى فليدعُ لأمى بالمغفرة والرحمة وبأن يجعل الله قبرها روضة من رياض الجنة.

❊ ❊ ❊

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الخوف من سوء الخاتمة

• من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه •

عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ قال: «من أحبَّ لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت.

قال: ليس ذلك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشر برضوان اللّه وكرامته، فليس شيء أحبَّ إليه مما أمامه، فأحب لقاء اللّه، وأحبَّ الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بُشر بعذاب اللّه وعقوبته، فليس شيءٌ أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء اللّه وكره اللّه لقاءه»(١).

قال الحافظ: قال ابن الأثير فى النهاية: المراد بلقاء اللّه هنا المصير إلى الدار الآخرة وطلب ما عند اللّه، وليس الغرض به الموت، لأن كلاً يكرهه، فمن ترك الدنيا وأبغضها أحب لقاء اللّه، ومن آثرها وركن إليها كره لقَاء اللّه لأنه إنما يصل إليه بالموت، ..... وقول عائشة ـ رضى اللّه عنها ـ والموت دون لقاء اللّه يبين أن الموت غير اللقاء، ولكنه معترض دون الغرض المطلوب، فيجب أن يصبر عليه ويحتمل مشاقه حتى يصل إلى الفوز باللقاء.

قال الطيبى: يريد أن قول عائشة إنا لنكره الموت يوهم أن المراد بلقاء اللّه فى الحديث الموت وليس كذلك، لأن لقاء اللّه غير الموت بدليل قوله فى الرواية الأخرى «والموت دون لقاء الله» لكن لما كان الموت وسيلة إلى لقاء اللّه عبر عنه بلقاء اللّه»(٢).

• إنما الأعمال بالخواتيم •

عن سهل بن سعد أن النبى ﷺ التقى هو والمشركون، وفى أصحابه رجلٌ لا يدع شاذة ولا فاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه، فقالوا: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان، فقال

(١) أخرجه البخارى (١١/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥) الرقاق.

(٢) فتح البارى (١١/ ٣٧٦).

www.ibtesama.com

رسول الله ﷺ: «هو من أهل النار» فقال رجل من القوم: أنا أصاحبه فاتَّبعه، فجُرح الرجل جرحًا شديدًا، فاستعجل الموتَ، فوضع نصلَ سيفه على الأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول اللّه ﷺ فقال: أشهد أنك رسول اللّه، وقصَّ عليه القصة، فقال رسول اللّه ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة» زاد البخارى رواية: «إنما الأعمال بالخواتيم»[١].

• الخواتيم ميراث السوابق •

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ:

وفى الجملة فالخواتيم ميراث السوابق، فكل ذلك سبق فى الكتاب السابق، ومن هنا كان يشتد خوف السلف من سوء الخاتمة، ومنهم من كان يقلق من ذكر السوابق، وقد قيل: إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم يقولون: بماذا يختم لنا؟ وقلوب المقرّبين معلقة بالسوابق يقولون: ماذا سبق لنا..

قال بعض السلف: ما أبكى العيون ما أبكاها الكتاب السابق، وقال سفيان لبعض الصالحين: هل أبكاك قط علم اللّه فيك؟ فقال له ذلك الرجل: تركنى لا أفرح أبدًا.

وكان سفيان الثورى يشتد قلقه من السوابق والخواتيم فكان يبكى ويقول: أخاف أن أكون فى أم الكتاب شقيًا، ويبكى ويقول: أخاف أن أُسلب الإيمان عند الموت.

وكان مالك بن دينار يقوم طولَ ليله قابضًا على لحيته ويقول: يا رب قدْ علمتَ ساكن الجنة من ساكن النار، ففى أى الدارين منزل مالك؟...

ومن هنا كان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق ويشتد قلقهم وجزعهم منه، فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر، ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة فيخرجه إلى النفاق الأكبر[٢].

* * *

(١) أخرجه البخارى (٢٨٩٨) ومسلم (١١٢).

(٢) جامع العلوم والحكم/ لابن رجب الحنبلى (ص: ٥٠).

www.ibtesama.com

• خوف السلف من سوء الخاتمة •

* أبو بكر الصديق رضى الله عنه... عن البهى مولى مصعب بن الزبير قال: لما احتضر أبو بكر جاءت عائشة (رضى الله عنها) فتمثلت بهذا البيت:

لعمرُك ما يُغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجتْ يومًا وضاق بها الصَّدْرُ

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قولى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (ق:١٩).

انظروا ثوبَّى هذين، فاغسلوهما، وكفنونى فيهما، فإن الحى أحوج إلى الجديد من الميت»[١].

• لو أن لى ما طلعت عليه الشمس أو غربت لافتديت به من هول المطلع •

عن ابن عمر قال: كان رأس عمر فى حجرى فى مرضه الذى مات فيه، فقال لى: ضع خدى على الأرض.

فقلت: وما كان عليك كان فى حجرى أو على الأرض؟

فقال: ضعه لا أم لك.فوضعته، فقال: ويلى، وويل لأمى إن لم يرحمنى ربى[٢].

وفى رواية: لما طُعن عمر رضى الله عنه جاء ابن عباس فقال:يا أمير المؤمنين! أسلمت حين كفر الناس، وجاهدت مع رسول اللّه ﷺ حين خذله الناس، وقتلت شهيداً ولم يختلف عليك اثنان، وتوفى رسول الله ﷺ وهو عنك راض، فقال له:

أعد علىّ مقالتك، فأعاد عليه فقال: المغرور مَن غررتموه، واللّه لو أن لى ما طلعت عليه الشمس أو غربت لافتديت به من هو المطلع[٣].

* * *

(١) الزهد للإمام أحمد (٢/ ١٤) وطبقات ابن سعد (٣/ ١٩٧).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٥٢) ـ المحتضرين لابن أبى الدنيا (ص: ٥٥).

(٣) وصايا العلماء (ص: ٣٨).

www.ibtesama.com

• القبر أول منازل الآخرة •

كان عثمان رضى الله عنه إذا وقف على قبر يبكى حتى يبلَّ لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار، فلا تبكى، وتذكر القبر فتبكى؟ فقال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه، فما بعده أيسر، وإن لم ينج منه فما بعده أشد».

قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما رأيت منظرًا قط إلا والقبر أفظع منه»(١).

وعن عبد الله بن الرومى، قال: «بلغنى أن عثمان رضى الله عنه قال: «لو أنى بين الجنة والنار، ولا أدرى إلى أيتهما يؤمر بى، لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير».

• والله لكأن القوم باتوا غافلين •

وقال علىٌّ رضى اللّه عنه: واللّه لقد رأيت أصحاب محمد صلى اللّه عليه وآله وسلم، فما أرى اليوم شيئًا يشبههم. لقد كانوا يصبحون شُعثًا غُبرًا، بين أعينهم أمثال رُكب المعز، قد باتوا للّه سجّدًا وقيامًا، يتلون كتاب اللّه تعالى، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا اللّه عزَّ وجل، مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح، وهطلت أعينهم حتى تبل ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين.

• أشتهى رحمة ربى •

وهذا ابن مسعود رضى الله عنه الذى ملأ الدنيا فقهًا وعلمًا يقول فى مرض الموت: «أشتهى رحمة ربى».

عن أبى ظبية قال: مرض عبد اللّه، فعاده عثمان، وقال: ما تشتكى؟

قال: ذُنوبى، قال: فما تشتهى؟ قال: رحمةَ ربى، قال: ألا آمر لك بطبيب؟

قال: الطبيبُ أمرضنى. قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لى فيه(٢).

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجه وحسنه الألبانى فى صحيح ابن ماجه (٣٤٦١).

(٢) السير/ للإمام الذهبى (١/ ٤٩٨).

www.ibtesama.com

• أبكى على بُعد سفرى وقلة زادى •

عن سلم بن بشير أن أبا هريرة بكى فى مرضه فقيل له: ما يُبكيك؟

قال: ما أبكى على دنياكم هذه، ولكن على بُعد سفرى، وقلة زادى، وأنى أمسيتُ فى صُعود، ومهبطُه على جنة أو نار، فلا أدرى أيهما يؤخذ بى[١].

• فريق فى الجنة وفريق فى السعير •

وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير، ويبكى حتى تجرى دموعه على لحيته. وبكى ليلة فبكى أهل الدار، فلما تجلت عنهم العَبرة قالت فاطمة: بأبى أنت ياأمير المؤمنين مم بكيت؟ قال: ذكرت منصرف القوم من بين يدى اللّه تعالى، فريق فى الجنة، وفريق فى السعير. ثم صرخ وغُشى عليه.

• وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون •

ولما نزل الموت بسليمان التيمى قيل: أبشر فقد كنت مجتهداً فى طاعة اللّه تعالى فقال: لا تقولوا هكذا، فإنى لا أدرى ما يبدو لى من اللّه عز وجل فإنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (الزمر:٤٧).

وقال أبو عبيدة بن الجراح رضى اللّه عنه: وددت أنى كنت كبشًا فذبحنى أهلى، فأكلوا لحمى، وحسَوا مرقى.

وقال عمران بن حصين: ياليتنى كنت رماداً تذروه الرياح.

وقال حذيفة رضى اللّه عنه: وددت أن لى إنسانًا يكون فى مالى، ثم أغلق علىَّ بابى، فلا يدخل علىَّ أحد حتى ألحق باللّه عزَّ وجل.

وكان مجرى الدمع فى خد ابن عباس رضى الله عنهما كالشراك البالى.

وقالت عائشة رضى الله عنها: ياليتنى كنت نسيًا منسيًا.

قال هرم بن حيان: وددت واللّه أنى شجرة أكلتنى ناقة، ثم قذفتنى بعراً، ولم أكابد الحساب يوم القيامة، إنى أخاف الداهية الكبرى.

---

(١) الزهد/ لابن المبارك (ص: ٣٨) والسير (٢/ ٥٧٨).

www.ibtesama.com

وكان على بن الحسين إذا توضأ اصفرَّ وتغيّر، فيُقال: مالَك؟ يقول: أتدرون بين يدى مَن أريد أن أقوم؟

وكان محمد بن واسع يبكى عامة الليل لا يكاد يفتر.

• اللهم أقِل العثرة واغفر الزلة •

ولّما حَضَرَت معاويةَ بنَ أبى سفيانَ الوفاةُ قال: أقعدونى، فأقعدوه، فجعل يذكر اللّه تعالى ـ ويسبحه ويقدسه. ثم قال مخاصمًا نفسه: الآن تذكر ربك يامعاويةُ بعد الانحطام والانهدام، ألا كان ذلك وغصنُ الشباب نضيرٌ ريان، وبكى حتى علا بكاؤه ثم قال:

هو الموت لا منجى من الموت والذى ... أحـــاذر مـنه المـوت أدهـى وأفظـع

ثم قال: يارب ارحم الشيخ العاصىَ ذا القلب القاسى، اللهم أقِلِ العثرةَ، واغفر الزلّةَ، وجُدْ بحلمك على من لم يرجُ غيرَك ولا وثق بأحد سِواك.

• اللهم لا برىء فأعتذر ولا قوى فأنتصر •

ويروى أن عمرو بنَ العاص رضى الله عنه لَما دنا منه الموتُ دعا بحراسه ورجاله فلمّا دخلوا عليه قال: هل تغنون عنى من اللّه شيئًا؟ قالوا: لا، قال: فاذهبوا وتفرقوا عنى، ثم دعا بماء فتوضأ فأسبغ الوضوء ثم قال: احملونى إلى المسجد، ففعلوا.

فقال: اللهم إنك أمرتنى فعصيتُ وائتمنتَنى فخنتُ وحددتَ لى فتعديتُ، اللهم لا برىءُ فأعتذر، ولا قويٌ فأنتصر، بل مذنبٌ مستغفر، لا مُصرٌ ولا مستكبر[1].

• شىء يفوق الخيال •

أخى الحبيب:هل تصدق أن هناك من سمع أصوات المعذَّبين والمنعَّمين فى قبورهم؟!

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ فى أهوال القبور: وقد أطلع اللّه من شاء من عباده على كثير مما ورد فى هذه الأحاديث حتى سمعوه وشاهدوه عيانًا. ونحن نذكر بعض ما بلغنا من ذلك:عن عبد الله بن عبيد الأنصارى قال: كنت ممن دفن ثابت بن قيس بن شماس ـ رضى الله عنه ـ وكان أصيب يوم اليمامة، فلما أدخلناه القبر سمعناه يقول: «محمد رسول اللّه، أبو بكر الصديق، عمر الشهيد، عثمان الرحيم، فنظرنا فإذا هو ميت».

(١) اغتنام الأوقات فى الباقيات الصالحات/ الشيخ عبد العزيز السلمان (ص: ١٤٤).

www.ibtesama.com

ومن طريق العلاء بن عبد الكريم قال: مات رجل، وكان له أخ ضعيف البصر، قال أخوه: فدفناه، فلما انصرف الناس، وضعت رأسى على القبر، فإذا أنا بصوت من داخل القبر يقول: «من ربك؟ ومن نبيك؟ فسمعت صوت أخى وهو يقول: اللّه (ربى، ومحمد ﷺ نبيى)، قال الآخر: فما دينك؟ قال: الإسلام».

وروى ابن أبى الدنيا فى كتاب «المحتضرين» بإسناده عن أبى غالب صاحب أبى أمامة: أن فتى بالشام حضره الموت، فقال لعمه: «أرأيت لو أن اللّه دفعنى إلى والدتى ما كانت تصنع بى؟» قال: «إذًا والله تدخلك الجنة». فقال: «والله لله أرحم بى من والدتى»، فقبض الفتى، فجزع عليه عبدالملك بن مروان قال: فدخلت القبر مع عمه فخطوا له خطا، ولم يلحدوه، قال: فقلنا باللبن[١] فسوينا عليه، فسقطت منها لبنة، فوثب عمه، فتأخر، قلت: «ما شأنك؟» قال: «ملىء قبره نورًا، وفسح له مد البصر»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّه: قد سمع غير واحد أصوات المعذبين فى قبورهم، وقد شوهد من يخرج من قبره وهو يعذب[٣].

وقال أيضًا: قد يكشف لكثير من أبناء زماننا يقظة ومنامًا، ويعلمون ذلك ويتحققونه، وعندنا من ذلك أمور كثيرة[٤].

وقال: وقد انكشفت لكثير من الناس ذلك حتى سمعوا أصوات المعذبين فى قبورهم، ورأوهم بعيونهم يعذبون فى قبورهم، فى آثار كثيرة معروفة[٥].

وقال ابن القيم رحمه اللّه: رؤية هذه النار فى القبر كرؤية الملائكة والجن تقع أحيانا لمن شاء اللّه أن يريه ذلك[٦].

* * *

(١) اللبن: الطوب غير المحروق.

(٢) أهوال القبور/ لابن رجب الحنبلى (٣٨: ٤٠) بتصرف.

(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٥٦).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٧٦).

(٥) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٩٦).

(٦) الروح/ لابن القيم (ص: ٩٣).

www.ibtesama.com

• علامات سوء الخاتمة •

إن علامات سوء الخاتمة كثيرة جداً ومنها على سبيل المثال:

التسخط والاعتراض على قضاء الله.. الأمن من مكر الله.. النفاق والرياء وحُب السمعة.. الغفلة عن ذكر الله (عز وجل).. إلى آخر تلك العلامات فمنها علامات تكون قبل الدفن ومنها ما يكون عند الدفن ومنها ما يكون بعد الدفن.

• علامات سوء الخاتمة قبل الموت:

فبعضهم عند موته يتلفظ بكلمات تُغضب اللّه (عز وجل) وذلك بأن يعترض على قضاء الله أو يُحال بينه وبين كلمة التوحيد أو ينطق بكلمة الكفر قبل الموت. فنعوذ بالله من الخُذلان.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي ـ رحمه اللّه ـ: (قال عبد العزيز بنُ أبي روَّاد: حضرْتُ رجلاً عند الموت يلقن الشهادة: لا إله إلا اللّه، فقال في آخر ما قال: هو كافر بما تقول، ومات على ذلك. قال فسألتُ عنه فإذا هو مدمنُ خمر. وكان عبدالعزيز يقول: اتقوا الذنوب فإنها هي التي أوقعته)[١].

ومنذُ سنوات جَرَتْ حادثةٌ في القصيم، وتطايرت أخبارها هنا وهناك، وحاصلُها أنَّ رجلاً في حال احتضاره ظهر عليه من الاعتراض على ربه ما ظهر، فجاء بعض أصحابه ممن كان يصلي معه في المسجد ـ واللّه أعلم بما في القلوب ـ وقال: يا عبد اللّه، هذا المصحفُ الذي كنت تقرأ فيه، فاتق اللّه في نفسكَ، ولقنه كلمة التوحيد، فقال: هو كافر بالمصحف، وبـ لا إله إلا اللّه، وخُتِمَ له على ذَلك الحال[٢]، فنعوذُ باللّه ـ تعالى ـ من الخذلان.

ومنهم من كان في سكرات الموت فيقولون له: قل لا إله إلا الله فيقول: هل رأى الحُب سُكارى.

ومنهم من قال عند موته: إن ربي ظلمني.

قال ابن القيم ـ رحمه اللّه ـ: والحكايات في هذه كثيرة جداً، فمن كان مشغولاً باللّه

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص: ٥٠).

(٢) من محاضرة للشيخ عبد الرحيم الطحان بعنوان/ الخوف من سوء الخاتمة.

www.ibtesama.com

وبذكره ومحبته فى حال حياته وجد ذلك أحوج ما هو إليه عند خروج روحه إلى اللّه، ومن كان مشغولاً بغيره فى حال حياته وصحته فيعسر عليه اشتغاله باللّه وحضوره معه عند الموت، وما لم يدركه عناية ربه، ولأجل هذا كان جديراً بالعاقل أن يلزم قلبه ولسانه ذكر اللّه حيثما كان، لأجل تلك اللحظة التى إن فاتت شقى شقاوة الأبد، فنسأل اللّه أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته[١].

• **علامات سوء الخاتمة عند التغسيل:**

يقول الشيخ القحطانى فى محاضرة له: إن بعض الأموات عندما كنت أغسلهم كان بعضهم تنقلب بشرته إلى السواد وبعضهم يقبض يده اليمنى وبعضهم يُدخل يده فى فرجه وبعضهم تشم رائحة الشواء من فرجه وبعضهم تسمعَ كأن أسياخًا من نار أُدخلت فى فرجه. يقول: ولقد جيء بميت فلما ابتدأنا بتغسيله انقلب لونه كأنه فحمةٌ سوداء وكان قبل ذلك أبيض البشرة، فخرجت من مكان التغسيل وأنا خائف فوجدت رجلاً واقفًا فقلت له: هذا الميت لكم؟ قال: نعم. قلت: أنت أبوه؟ قال: نعم، قلت: ما شأن الرجل؟ قال: هذا الرجل كان لا يصلى فقلت له خذ ميتك فغسّله[٢].

قال فى «تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان»: ولقد حدثنى عدد ممن يغسلون الموتى من مناطق مختلفة، عن بعض ما شاهدوه أثناء التغسيل من هذه العلامات، والغريب فى الأمر أنهم يتفقون على صفات معينة، يرونها على هؤلاء الموتى، وأكثر هذه الحوادث متشابهة، من ذلك أن الرجل الذى يموت على الخير يبدو وكأنه نائم وأما من مات على خلاف ذلك فيظهر عليه الفزع وخوف الموت، مع تغير فى وجهه، ولقد غسلت وشاركت فى التغسيل ورأيت بعض ذلك والحمد للّه.

حدثنى أحدهم فقال: غسلت رجلاً، وكان لونه مصفرًا، وفى أثناء التغسيل أخذ لونه يتغير إلى السواد من رأسه إلى وسطه فلما انتهيت من التغسيل فإذا به قد أصبح كالفحمة السوداء.

قال: وميت آخر كان وجهه أثناء التغسيل متوجهًا نحو كتفه الأيسر، فلما أرجعته نحو الكتف الأيمن عاد إلى الجهة اليسرى، حتى لما وضعته فى قبره ووجهته نحو القبلة انصرف وجهه عنها إلى أعلى.

---

(١) طريق الهجرتين (ص: ٣٠٨: ٣٠٩).

(٢) تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان (ص: ٤٧).

www.ibtesama.com

وحدثني مغسلٌ آخر أنه غسل رجلاً وكان لونه مصفرًا، فلما فرغوا من التغسيل اسود وجه ذلك الرجل فقلت له: أسود مثل لحيتي؟ قال: أسود كالفحم، قال: ثم صار يخرج من عينيه دم أحمر وكأنه يبكي الدم والعياذ باللّه.

وحدثني مغسل آخر فقال: دخلت ذات مرة على بعض الإخوان وهم يغسلون ميتًا فرأيت وجهه مسودًا كأنه قرص محترق، وجسمه أصفر ومنظره مخيفًا، ثم جاء بعض أهله لينظروا إليه فلما رأوه على تلك الصورة فروا هاربين خوفًا منه[١].

• **علامات سوء الخاتمة عند الدفن:**

وقال الشيخ القحطاني: خرجت ذات يوم من المقبرة بعد صلاة العصر، وكنا قد قبرنا رجلاً وكان الطين عالقًا في يدي، فأردت أن أغسلها، إذ جاءت جنازة فقال أحدهم وكانوا في حدود الخمسين رجلاً: باللّه عليك أن تساعدنا في دفن هذا الرجل، فواللّه لا نُحسن الدفن فسلك الرجل من جهة الرجلين وكان ثقيلاً، فأعانني عليه بعضهم فوضعته في القبر وطلبت لبنةً أضعها تحت رأسه وقد حللت الأربطة فنظرت فإذا برأس هذا الميت قد تحوّل ـ عياذًا باللّه ـ من القبلة هكذا فحوّل الشيخ رأسه، فقمت بردّ هذا الميت إلى القبلة وأخذت اللبنة الثانية ولكني في هذه المرة وجدت عينيه قد فُتحتا وأنفه وفمه يصبان الدم الأحمر القاني فداخلني الخوف والوجل حتى إن رجلي لم تستطعا أن تحملاني داخل القبر، وقد رأى معي اثنان أو ثلاثة هذا المشهد الغريب الخطير ثم أعطوني اللبنة الثالثة، فوجدت أنه تحول في المرة الثالثة فتركته وهربت من القبر نهائيًا، فقام الذين كانوا معي وتولوا عملية الدفن فردموه بالتراب ولم يغلقوا اللحد من شد الخوف ثم صرت أرى هذا الميت في المنام سبع أو ثماني مرات حتى سكّن اللّه قلبي عندما ذهبت إلى العمرة وجلست هناك في حدود خمسة عشر يومًا حتى نسيت وعدت إلى الرياض[٢].

قال في «تذكرة الإخوان»: وأما ما ظهر عند الإنزال في القبر والعياذ باللّه فحدثني أحد المغسلين فقال: غسلت عددًا كبيرًا من الموتى لسنين طويلة، وأذكر أني وجهت أكثر من مائة ميت كلهم صرفت وجوههم عن القبلة.

وحدثني مغسل آخر قال: عندما وضعت أحد الموتى في قبره ووجهته نحو القبلة، رأيت وجهه قد تحول إلى أسفل، ودخل أنفه في التراب، ثم وجهته إلى القبلة ووضعت

(١) «تذكرة الإخوان» باختصار (ص: ٤٧ ـ ٤٨).

(٢) المرجع السابق (ص: ٤٨ ـ ٤٩).

www.ibtesama.com

تحت رأسه ترابًا، ولكنه عاد وأدخل أنفه فى التراب، ثم وضعت رملاً أكثر فى هذه المرة حتى لا يعود ولكنه عاد وأدخل أنفه فى التراب، ولم أزل معه حتى تكرر الأمر خمس مرات فلما يئست منه تركته وأغلقت القبر.

قال أحد الفضلاء: كنا فى رحلة دعوية إلى الأردن، وفى ذات يوم وقد صلينا الجمعة فى أحد مساجد مدينة الزرقاء وكان معنا بعض طلبة العلم وعالم من الكويت، وبينما نحن جلوس فى المسجد وقد انصرف الناس، إذا بقوم يدخلون باب المسجد بشكل غير طبيعى وهم يصيحون أين الشيخ، أين الشيخ؟ وجاءوا إلى الشيخ الكويتى فقالوا له: ياشيخ عندنا شاب توفى صباح هذا اليوم عن طريق حادث مرورى وإننا عندما حفرنا قبره إذا بنا نفاجأ بوجود ثعبان عظيم فى القبر، ونحن الآن لم نضع الشاب وما ندرى كيف نتصرف؟

يقول الراوى: فقام الشيخ وقمنا معه وذهبنا إلى المقبرة، ونظرنا فى القبر فوجدنا فيه ثعبانًا عظيمًا قد التوى: رأسه فى الداخل وذنبه فى الخارج، وعينه بارزة يطالع الناس.

قال الراوى: فقال الشيخ: دعوه واحفروا له مكانًا آخر.

يقول فذهبنا إلى مكان آخر بعد القبر الأول بمائتى متر تقريبًا، فحفرنا وبينما نحن فى نهايته إذا بالثعبان يخرج. فقال الشيخ: انظروا القبر الأول فإذا بالثعبان قد اخترق الأرض وخرج من القبر الأول مرة أخرى.

قال الشيخ: لو حفرنا ثالثًا ورابعًا سيخرج الثعبان فما لنا حيلة إلا أن نحاول إخراجه.

يقول الراوى: فجئنا بأسياخ وعصى فانحمل معنا وخرج من القبر وجلس على شفيره والناس كلهم ينظرون إليه، وأصاب الناس ذعرٌ وخوف، حتى إن بعضهم حصل له إغماء فحملته سيارة الإسعاف.

وحضر رجال الأمن ومنعوا الاتصال بالقبر إلا عن طريق العلماء وذوى الميت.

يقول الراوى: وبينما جيء بالجنازة وأدخلت القبر إذا بذلك الثعبان يتحرك حركة عظيمة ثار على أثرها الغبار، ثم دخل من أسفل القبر فهرب الذين داخل القبر من شدة الخوف، والتوى الثعبان على ذلك الميت وبدأ من رجليه حتى وصل رأسه، ثم اشتد عليه فحطمه: يقول الراوى: إنا كنا نسمع تحطيم عظامه كما تحطم حزمة الكراث.

يقول الراوى: ثم لما هدأت الغبرة وسكن الأمر جئنا لننظر فى القبر، وإذا الحال كما

www.ibtesama.com

هو عليه من تلوى ذلك الثعبان على الميت وما استطعنا أن نفعل شيئًا.

وقال الشيخ: اردموه، فدفناه ثم ذهبنا إلى والده فسألناه عن حال ابنه الشاب؟ فقال: إنه كان طيبًا مطيعًا إلا أنه لا يصلى، نعود باللّه من سوء الختام[١].

• علامات سوء الخاتمة بعد الدفن:

كان هناك رجل يعمل نباشًا للقبور فلما تاب إلى اللّه سأله أحد العلماء ما السر فى توبتك؟!!! فقال له الرجل: لقد كنت أنبش قبور المسلمين بعد دفنهم لأسرق الأكفان والأسنان الذهبية وغير ذلك فنبشت ألف قبر فما وجدت واحدًا منهم موجهًا للقبلة مع أن أقاربه دفنوه منذ ساعات وتركوه موجَّهًا لِّلقبلة!!! فقلت فى نفسى ما الذى حولَّهم عن القبلة؟ فعلمت أن ما فعلوه فى الدنيا ظهر فى قبورهم فعزمت على أن أتوب قبل أن يأتينى ملك الموت وأنا على تلك الحالة.

نعم يا إخوانى: ما فعلوه هنا ظهر هناك.. وما أدراك ما هناك !!!.

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: كان منا رجلٌ من بنى النجار قد قرأ البقرة وآل عمران، وكان يكتب لرسول الله ﷺ فانطلق هاربًا حتى لحق بأهل الكتاب، قال: فرفعوه، قالوا: هذا قد كان يكتب لمحمد ﷺ.

فأعجبوا به فما لبث أن قصم اللّه عنقه فيهم، فحفروا له فواروه فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، ثم عادوا فحفروا له فواروه فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، ثم عادوا فحفروا له فواروه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، فتركوه منبوذًا[٢].

• أسباب سوء الخاتمة •

وهى أسباب كثيرة وسنكتفى بذكر أهم تلك الأسباب:

(١) الشك والجحود والتعبّد بالبدع:

ومعناها: أن يعتقد فى ذات اللّه ـ تعالى ـ أو صفاته أو أفعاله خلاف الحق، إما تقليداً، أو برأيه الفاسد، فإذا انكشَفَ الغطاء عند الموت بان له بطلانُ ما اعتقده فظن أن جميع ما اعتقده لا أصل له.

---

(١) رسالة عاجلة إلى المسلمين/ (ص: ٤٦ ـ ٥٠).

(٢) أخرجه البخارى (٦/ ٦٢٤) الأنبياء.

www.ibtesama.com

وكم خُتِمَ لكثيرٍ من البشر بهذا عندما ابتدعوا فى دين الله ـ عز وجل ـ وزاغوا وانحرفوا عن صراطِ اللّه المستقيم، وظهرت حقيقتُهم فى أولِ لقاءٍ لهم مع ربِّ العالمين سبحانه.

هذا ابنُ الفارض عمرُ بنُ علىٍّ الحموىُّ (المتوفىَّ سنة ٦٣٢هـ) والذى كان ينعقُ بالاتحاد، ويقول بحلول اللّه ـ جل وعلا ـ فى مخلوقاته، وأن العبدَ رب والربَّ عبدٌ، عندما احتُضرَ كما قال الأئمة الثقات الذين شاهدوه فى حالة الاحتضار نَظَمَ بيتين من الشعر وهو فى تلك الحالة يعبرُ فيها عن شقوته وعن هلاكه ويبكى ويقول:

إنْ كان منزلتى فى الحبِّ عندكم ... ما قد رأيت فقد ضيعتُ أيامى

أمنيةٌ ظفرت نفسى بها زمنًا ... واليوم أحسبها أضغاثَ أحلامى[1]

وقال ذلك عندما عاين سخط اللّه ـ جل وعلا ـ وكُشفَ له عن حقيقة أمره، وقَلَّ أن يُختَمِ لمبتدعٍ فى دين اللّه ـ تعالى ـ بالإيمان، ونسأل اللّه السلامةَ والعافية.

(٢) تسويف التوبة:

أخى الحبيب.. أختى الفاضلة: إن من أهم أسباب سوء الخاتمة ـ تسويف التوبة ـ فلا يزال العبد غارقًا فى الشهوات والشبهات وهو يؤجل التوبة يومًا بعد يوم حتى يأتيه ملك الموت فجأة فيصرخ هذا العبد ويندم على عمره الذى مضى فى معصية الله ويقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ فيقال له: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون:٩٩ ـ ١٠٠).

فيا لها من حسرة تجعل القلوب تبكى الدماء بدل الدموع.

قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (الزمر:٥٤ ـ ٦٠).

---

(١) من محاضرة للشيخ/ عبد الرحيم الطحان ـ بعنوان «الخوف من سوء الخاتمة».

www.ibtesama.com

وصدق من قال:

العمر ينقص والذنوب تزيدُ ... وتقال عثرات الفتى فيعودُ

هل يستطيع جحود ذنبٍ واحدٍ ... رجلٌ جوارحه عليه شهودُ

والمرء يسأل عن سنيه فيشتهى ... تقليلها وعن الممات يحيدُ

فأقبِل على اللّه يا أخى ولا تيأس من رحمة اللّه فرحمته وسعت كل شىء.. وذنبك مهما عظم فهو شىء وسوف تسعه رحمة اللّه (جل وعلا)... وإياك وتسويف التوبة لكى لا تندم حين لا ينفع الندم فكم من أُناسٍ هلكوا بسبب (سوف) إلى أن جاءهم ملك الموت وهم غارقون فى الذنوب والمعاصى.

قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المنافقون:١٠، ١١).

قال ابن كثير: «كل مفرّط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ولو شيئًا يسيرًا، ليستعتب ويستدرك ما فاته، وهيهات، كان ما كان، وأتى ما هو آت، وكل بحسب تفريطه»(١).

قال الحسن البصرى ـ رحمه اللّه ـ: «هيهات هيهات، أهلك الناس الأمانى، قول بلا عمل، ومعرفة بغير صبر، وإيمان بلا يقين».

«البدار البدار قبل الفوات، الحذار الحذار من يوم الغفلات، قبل أن يقول المذنب: (رَبِّ ارْجِعُونِ)؛ فيقال: فات»(٢).

كلنـــا فى غفـلة ... والموت يغدو ويروح

نُح على نفسك يا ... مسكينُ إن كنت تنوحُ

(٣) عدم الاستقامة على الطاعة:

قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (ابراهيم:٢٧).

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٣).

(٢) التبصرة/ لابن الجوزى (١/ ١٧٧).

www.ibtesama.com

فأهل الاستقامة على الطاعة هم الذين يثبتهم الله (جل وعلا) فى الدنيا والآخرة وهم الذين تتنزل عليهم الملائكة عند الموت لتبشرهم بالجنة.. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ (فصلت:٣٠ ـ ٣٢).

أما الذين تتقاذفهم أمواج الفتنة والشهوات فهؤلاء الذين تُختم لهم بسوء الخاتمة.

قيل لأحد علماء سلفنا: فلان عرف طريق الله ثم رجع عنه. فقال: «لو وصلوا إليه ما رجعوا».

فمن عرف طريق الملك (جل وعلا) ثم أعرض عنه وتنكّبه، واختار طرق الغواية والضلال، وآثر الغىّ على الرشاد، والضلالة على الهُدى، والفجور على التقى، كان ذلك من أعظم أسباب سوء الخاتمة.

وقد ورد عند مسلم وأحمد وغيرهما من حديث عبد الله بن سرجس قال: كان رسول الله ﷺ يتعوّذ من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب، والحور بعد الكور».

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الصف:٥).

وقال عبد الحق الإشبيلى رحمه الله: ويروى أنه كان بمصر رجل يلزم مسجدًا للأذان والصلاة وعليه بهاء الطاعة وأنوار العبادة، فرقى يومًا المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصرانى، فاطلع فيها، فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها، فترك الأذان، ونزل إليها، ودخل الدار عليها، فقالت له: ماشأنك؟ وما تريد؟ قال: أريدك قالت: لماذا؟ قال: لقد سبيت لُبى، وأخذت بمجامع قلبى؟ قالت: لا أجيبك إلى ريبة أبدًا.

قال: أتزوجك؟ قالت: أنت مسلم، وأنا نصرانية، وأبى لا يزوجنى منك. قال: أتنصر؟ قالت: إن فعلت أفعل، فتنصَّر الرجل ليتزوجها، وأقام معهم فى الدار، فلما كان فى أثناء ذلك اليوم، رقى إلى سطح كان فى الدار فسقط منه فمات، فلم يظفر بها، وفاته دينه(١).

ويروى طاوس بن كيسان ـ رحمه الله ـ فيقول: كان رجل من بنى إسرائيل، وكان

(١) الداء والدواء/ (ص: ١٧٠).

www.ibtesama.com

عابدًا، وكان ربما داوى المجانين، وكانت امرأة جميلة أخذها الجنون، فجىء بها إليه فتركت عنده، فأعجبته، فوقع عليها فحملت، فجاءه الشيطان فقال:ـ إن عُلِم بهذا افتضحت فاقتلها، وادفنها فى بيتك، فقتلها ودفنها فى بيته، فجاء أهلها بعد ذلك بزمان يسألونه عنها. فقال: ماتت، فلم يتهموه لصلاحه فيهم ورضاه، فجاءهم الشيطان فقال: إنها لم تمت، ولكنه وقع عليها، فحملت فقتلها ودفنها، وهى فى بيته فى مكان كذا وكذا، فجاء أهلها، فقالوا: ما نتهمك، ولكن أخبرنا أين دفنتها؟ ومن كان معك؟

ففتشوا بيته، فوجدوها حيث دفنها، فأخذ فسُجن فجاء الشيطان فقال: إن كنت تريد أن أخلصك مما أنت فيه وتخرج منه، فاكفر باللّه،... فأطاع الشيطان وكفر فأُخذ فقتل، فتبرأ منه الشيطان حينئذ.

قال طاووس: فما أعلم إلا أن هذه الآية أنزلت فيه[1]. ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الحشر:١٦).

(٤) طول الأمل:

أخى الحبيب.. أختى الفاضلة:

جميل أن نحمل فى قلوبنا أملاً، لكى نعمرِّ الكون بكل أنواع الخير، فالإنسان مفطور على حُب الحياة.. لكن لابد أن نحذر من أن يحول طول الأمل بيننا وبين طاعة الله عز وجل.

فإن صاحب الأمل الطويل فى الدنيا يركن غالبًا إلى الشهوات والملذات، ولذلك نجد قلبه لا يتحرك لآيات الله وكلام رسول الله ﷺ. ومن أجل ذلك حذَّر النبى ﷺ من طول الأمل.

فعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: أخذ رسول ﷺ بمنكبى فقال «كُن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك .. زاد أحمد والترمذى: «وعدَّ نفسك من أهل القبور»[2].

---

(١) خبر صحيح إلى طاوس. أخرجه عبد الرزاق (٣١٩٤) فى تفسيره، وعبد بن حميد كما فى الدر المنثور (٦/ ٢٠٠).

(٢) رواه البخارى وأحمد والترمذى وابن ماجه عن ابن عمر ـ صحيح الجامع (٤٥٧٩).

www.ibtesama.com

ولقد قال تعالى عن هذا الصنف: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الحجر:٣).

قال الإمام القرطبى: وطول الأمل داء عُضال ومرض مزمن ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه واشتد علاجه ولم يفارقه داء ولا نجح فيه دواء، بل أعيا الأطباء ويئس من بُرئه الحكماء والعلماء.

وحقيقة الأمل: الحرص على الدنيا والانكباب عليها، والحب لها والإعراض عن الآخرة.. ولذا قال رسول الله ﷺ: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل»(١).

ويُروى عن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه قام على درج مسجد دمشق فقال: ياأهل دمشق، ألا تسمعون من أخٍ لكم ناصح؟! إنّ من كان قبلكم كانوا يجمعون كثرًا ويبنون مشيداً ويأملون بعيداً، فأصبح جمعهم بُورًا وبنيانهم قبوراً وأملهم غروراً. هذه عاد قد ملأت البلاد أهلاً ومالاً وخيلاً ورجالاً.فمن يشترى منى اليوم تركتهم بدرهمين! وأنشد:

ياذا المؤمل آمالاً وإن بَعُدت ... منه ويزعم أن يحظى بأقصاها

أنَّى تفوز بما ترجوه ويْكَ وما ... أصبحت فى ثقة من نَيْل أدناها

* وقال الحسن: ما أطال عبدٌ الأمل إلا أساء العمل، وصدق رضى الله عنه! فالأمل يكسل عن العمل ويورث التراخى والتوانى، ويعقب التشاغل والتقاعس، ويخلد إلى الأرض ويميل إلى الهوى. وهذا أمر قد شوهد بالعيان فلا يحتاج إلى بيان ولا يُطْلَب صاحبه ببرهان؛ كما أن قصر الأمل يبعث على العمل، ويُحيل على المبادرة، ويحثّ على المسابقة(٢).

وقال علىّ رضى الله عنه: إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسى الآخرة.

وجاء فى الأثر: أربعة من الشقاء: جمود العين، وقسوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا(٣).

---

(١) رواه أحمد فى الزهد والطبرانى فى الكبير والبيهقى عن ابن عمرو، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٨٤٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى (١٠/ ٧ ـ ٨) ط. دار الحديث.

(٣) أختاه إنما أنت أيام/ للمصنف (ص: ٥٣ ـ ٥٦).

www.ibtesama.com

وطول الأمل له سببان:

أحدهما: الجهل: فيظن الشاب أن الموت بعيدٌ عنه لأنه مازال فى ريعان شبابه وصحته وعافيته.. وما علم هذا الشاب أن الموت لا يعرف صغيراً ولا كبيراً.

قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ (النساء:٧٨).

وعن الأعمش عن خيثمة قال: دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جُلسائه يديم النظر إليه، فلما خرج قال الرجل: من هذا؟ قال: هذا ملك الموت، قال: لقد رأيته ينظر إلىَّ كأنه يريدنى قال: فماذا تريد؟ قال أريد أن تخلصنى منه فتأمر الريح حتى تحملنى إلى أقصى الهند! ففعلت الريح ذلك، ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أتاه ثانية: رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائى قال: نعم كنت أتعجب منه لأنى كنت أُمرت أن أقبضه بأقصى الهند فى ساعة قريبة وكان عندك فعجبت من ذلك[1]!

تـزود مـــن الدنيـــا فإنـك لا تـدرى ... إذا جن ليل هـل تعيـش إلى الفجـرِ
فكم مـن فتى يمسـى ويصـبح لاهيا ... وقـد نُسـجت أكفانه وهو لا يدرى
وكم مـن عـروس زينوهـا لزوجهـا ... وقد قبـضت أرواحهـم ليلـة القـدرِ
وكم من صغار يُرتجى طـول عمرهم ... وقد أُدخلت أجسادهم ظلمـة القبـرِ
وكم من صحيح مـات مـن غير علة ... وكم من سقيم عاش حينًا من الدهرِ

أما السبب الثانى لطول الأمل: فهو حُب الدنيا.. وسنجعل هذا السبب مستقلاً لأهميته.

(٥) حب الدنيا:

أما حب الدنيا فإن الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها، ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئًا دفعه عن نفسه، والإنسان مشغول بالأمانى الباطلة، فيمنى نفسه أبداً بما يوافق مراده من البقاء فى الدنيا.

وأصل هذه الأمانى كلها، حبُّ الدنيا والأنس بها، والغفلة عن قول النبى ﷺ:

(١) إحياء علوم الدين/ للإمام الغزالى (٥/ ١٤٩).

www.ibtesama.com

«أحبب ما شئت فإنك مفارقه»(١).

* قال ابن عباس (رضى الله عنهما): «يؤتى بالدنيا يوم القيامة فى صورة عجوز شمطاء زرقاء، أنيابها بادية ومشّوه خلقها، فتشرف على الخلائق فيقال لهم: أتعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه! فيقال: هذه الدنيا التى تناحرتم عليها، بها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم، ثم يُقذف بها فى جهنم فتنادى: أى رب أين أتباعى وأشياعى؟ فيقول الله عز وجل: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها».

قال يحيى بن معاذ: الدنيا خمر الشيطان مَن سكِر منها فلا يفيق إلا فى عسكر الموتى نادمًا بين الخاسرين.

ومحب الدنيا أشدّ الناس عذابًا بها، وهو معذب فى دوره الثلاثة يعذب فى الدنيا بتحصيلها والسعى فيها ومنازعة أهلها، وفى دار البرزخ بفواتها والحسرة عليها، وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبدًا، ويعذب يوم لقاء ربه... قال تعالى: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة:٥٥).

قال القرطبى: ومثل هذا فى النّاس كثير ممن غلب عليه الاشتغال بالدنيا والهمُّ بها، أو سبب من أسبابها، حتى لقد حكى لنا أن بعض السماسرة جاءه الموت فقيل له: قل: لا إله إلا اللّه فجعل يقول: ثلاثة ونصف، أربعة ونصف... غلبت عليه «حب» السمسرة.

ولقد رأيت بعض الحُسَّاب وهو فى غاية المرض، يعقد بأصابعه ويحسب... وقيل لآخر قل: لا إله إلا اللّه فجعل يقول: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والجنان الفلانية اعملوا فيها كذا.

قال ابن القيم: وأخبرنى من حضر بعض الشحاذين عند موته فجعل يقول: للَّه، فلس للَّه، حتى قضى.

وأخبرنى بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده وجعلوا يلقنوه «لا إله إلا اللَّه» وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، هذا مشترى جيدٌ هذا كذا حتى قضى!

وسبحان اللَّه كم شاهد الناس من هذا عبرًا؟ والذى يخفى عليهم من أحوال

(١) رواه الشيرازى والحاكم وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٣).

www.ibtesama.com

المحتضرين أعظم وأعظم[١].

وقال لقمان لابنه: يابنى بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعًا، ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعًا.. وقال مطرف بن الشخير: لا تنظر إلى خفض عيش الملوك ولين رياشهم، ولكن انظر إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم. وقال ابن عباس: إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء: جزء للمؤمن، وجزء للمنافق، وجزء للكافر. فالمؤمن يتزوّد، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع.

(٦) صحبة الأشرار:

قال ﷺ «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»[٢].

وفى الصحيحين أن النبى ﷺ قال: «أنت مع من أحببت» فالصاحب ساحب. إما أن يأخذ بيديك إلى مرضاة الله وإما أن يأخذ بيديك إلى معصية الله (جل وعلا) وكم من أُناسٍ عاشوا على طاعة الله فلما اختلطوا بالعصاة والأشرار فإذا بهم ينتكسون على أعقابهم وينغمسون فى الذنوب والمعاصى ويموتون على ذلك.. بل ومنهم من يموت على الكفر بعد الإيمان.. ومنهم من يُحال بينه وبين الإيمان بسبب مصاحبة الأشرار.

* وها هو عقبة بن أبى معيط الذى مات على الكفر بسبب صحبة السوء ـ فقد رُوى أن عقبة كان صديقا لأبى بن خلف فصنع عقبة وليمة فدعا إليها قريشًا ودعا رسول الله ﷺ فلما قدم الطعام قال رسول الله ﷺ ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أنى رسول الله ففعل فأكل رسول الله من طعامه فلما بلغ (أبى بن خلف) ذلك قال لصديقه عقبه: صبأت؟ قال لا ولكن دخل علىّ رجل عظيم فأبى أن يأكل طعامى حتى أشهد له بالرسالة.. فقال له (أبى بن خلف) وجهى من وجهك حرام إن رأيت محمداً حتى تبزق فى وجهه وتطأ على عنقه وتقول كيت... وكيت ففعل عدو الله ما أمره به خليله فأنزل الله ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ (الفرقان:٢٧ ـ ٢٩)[٣].

---

(١) الداء والدواء/ (ص: ١٤٣).

(٢) رواه الترمذى وأبو داود عن أبى هريرة وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥٤٥).

(٣) التفسير الكبير/ (٢٤/ ٧٥).

www.ibtesama.com

يقول ابن كثير: يخبر تعالى عن ندم الظالم الذى فارق طريق الرسول وسلك سبيلا غير سبيل الرسول فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم وعض على يديه حسرةً وأسفا وسواء كان نزولها فى (عقبة بن أبى معيط) أو غيره من الأشقياء فإنها عامة فى كل ظالم(١).

* عن سعيد بن المسيِّب عن أبيه قال: «لَمَا حضرتْ أبا طالب الوفاةُ، جاءه رسولُ الله ﷺ، فوجد عندَه أبا جهلٍ وعبدَ اللّه بن أبى أُمَيَّةَ بن المُغيرة، فقال رسولُ اللّه ﷺ: «ياعمِّ قُلْ لا إله إلا اللّهُ، كلمة أشهدُ لك بها عندَ اللّه»، فقال أبو جهلٍ وعبدُ اللّه بنُ أبى أُميَّة: يا أبا طالب أترغبُ عن ملَّة عبد المطَّلب؟ فلم يزل رسولُ اللّه ﷺ يَعرضُها عليه ويُعيدُ له تلك المقالَة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلَّمهم:هو على ملَّة عبد المطَّلب، وأبى أن يقول: لا إلّه إلا اللّهُ، فقال رسولُ اللّه ﷺ: «أما واللّه لأستغفرَنَّ لك مالَم أُنْهَ عنك». فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾، وأنزل اللّه تعالى فى أبى طالب فقال لرسول اللّه ﷺ: ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾ (٢).

(٧) مخالفة الباطن للظاهر:

فقد يكون العبد ممن يُظهر الصلاح للناس فإذا خلا بنفسه أطلق العنان لشهواته وملذاته وحارب الله بالذنوب والمعاصى.

قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ (النساء:١٠٨).

قال أبو محمد عبد الحق: اعلم أن سوء الخاتمة ـ أعاذنا الله منها ـ لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، وما سُمع بهذا، ولا علم به ـ والحمد لله ـ وإنما تكون لمن كان له فساد فى العقل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم. فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فيصطلمه(٣) الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله ثم العياذ بالله، أو يكون ممن كان مستقيمًا، ثم يتغير عن حاله ويخرج عن سننه، ... ويأخذ فى طريقه، فيكون ذلك سببًا لسوء خاتمته وشؤم عاقبته،

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٦٣٠).

(٢) أخرجه مسلم (٣) كتاب الإيمان.

(٣) يصطلمه: أى يستأصله عن دينه ويقطعه عنه.

www.ibtesama.com

كإبليس الذى عبد الله فيما يروى ثمانين ألف سنة، وبلعام بن باعوراء الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها بخلوده إلى الأرض، واتباع هواه،... وبرصيصا العابد الذى قال الله فى حقه: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ﴾ (الحشر:١٦).

ويروى أن رجلاً علق بشخص وأحبه، فتمنَّع عنه واشتد نفاره فاشتد كلف البائس إلى أن لزم الفراش، فلم تزل الوسائط تمشى بينهما حتى وعد بأن (يعوده)، ـ أى يزوره ـ فأخبر بذلك ففرح واشتد فرحه وسروره، وانجلى عنه بعض ما كان يجده، فلما كان فى بعض الطريق رجع، وقال: والله لا أدخل مداخل الريب، ولا أعرض بنفسى لمواقع التهم فأخبر بذلك البائس المسكين فسقط فى يده ورجع إلى أسوأ ما كان به وبدت علامات الموت وأماراته عليه.

قال الراوى: فسمعته يقول وهو فى تلك الحال:

سـلامٌ يا راحـــة العليـــل وبرد ذل الدَّنف[1] النحيلِ

رضـاك أشهى إلى فـؤادى من رحمة الخالـق الجليـلِ

قال: فقلت له: يافلان، اتق الله تعالى فقال:قد كان ما كان... فقمت عنه، فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت قد قامت عليه. فنعوذ بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة[2].

(٨) تعلق القلب بغير الله:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد:٢٨).

فحياة القلب فى تعلقه بالله (عز وجل) وشقاء القلب فى إعراض صاحبه عن الله (جل وعلا) فمن تعلق قلبه بغير الله فهذا إيذان بسوء الخاتمة.

فيا من تعلق قلبه بالمال أُهدى إليك هذه القصة.

إنها قصة الرجل الذى تعلّق قلبه بحب المال حبًا شديدًا، وهذا الرجل كان من الإحساء وقد بلغ من الكبر عيتًا، ليس له أحد، لا زوج ولا ولد ولا قريب، فانظر كيف صنع:

---

(١) الدنف: المرض الشديد الملازم لصاحبه.

(٢) الداء والدواء/ (ص: ٢٠٠).

www.ibtesama.com

جمع ذهبه أمامه، وبجواره زيت، وهو يخاطب الذهب: ياحبيبى، يامن أفنيت فيك عمرى، أموت وأتركك لغيرى، لا واللّه، أنا أعلم أن موتى قريب، وأن مرضى خطير، ولكنى سأدفنك معى، ثم يأخذ دينار الذهب، ويغمسه فى الزيت ويهوى به إلى فمه ويبلعه، فإذا بلعه أصابته كحة شديدة يكاد أن يموت منها، ثم يأخذ نَفَسه ويرفع ديناراً ثانيًا، ثم يغمسه فى الزيت ويهوى به فى فمه.. حتى مات من جرّاء ذلك»[1].

ويا من تعلَّق قلبه بالشهوات المحرمة أُهدى إليك هذه القصص:

ها هم أربعة من الشباب، كانوا يعملون فى دائرة واحدة، مضت عليهم سنين وهم يجمعون رواتبهم، فإذا سمعوا ببلد يفعل الفجور طاروا إليها، وبينما هم فى ذات يوم جالسين إذ سمعوا ببلاد لم يذهبوا إليها، وعقدوا العزم أن يجمعوا رواتبهم هذه المرة ليسافروا إلى تلك البلاد التى حدّدوها. وجاء وقت الرحلة وركبوا طيارتهم ومضوا إلى ما يريدون، ومَرَّ عليهم أكثر من اسبوع فى تلك البلاد وهم بين زنا وخمور، وفعال لا تُرضى الرحمن، بينما هم فى ليلة من الليالى، وفى ساعة متأخرة من الليل، يجاهرون الله تعالى بالمعصية والفجور، نعم بينما هم فى غمرة اللهو والمجون إذا بأحد الأربعة يسقط مغشيًا عليه، فيهرع إليه أصحابه الثلاثة فيقول له أحدهم فى تلك الليلة الحمراء، يقول له: يا أخى، قل لا إله إلا الله، فيرد الشاب ـ عياذًا بالله ـ: إليك عنى. زدنى كأس الخمر وتعالى يا فلانة، ثم فاضت روحه إلى الله وهو على تلك الحال السيئة، نسأل الله ـ تعالى ـ السلامة والعافية.

ثم كان حال الثلاثة الآخرين لما رأوا صاحبهم وما آل إليه أمره أنهم أخذوا يبكون، وخرجوا من المرقص تائبين، وجهزوا صاحبهم، وعادوا به إلى بلاده محمولاً فى تابوت، ولما وصلوا المطار فتحوا التابوت ليتأكدوا من جثته، فلما نظروا إلى وجهه فإذا عليه كدرة وسواد ـ عياذًا بالله ـ.

* وهذه قصة معاصرة رواها الشيخ سعد البريك بارك الله فيه، وهى قصة شاب من أولئك المنحرفين الذين كانوا يسافرون إلى «بانكوك» للفسق والدعارة بينما كان فى سكره وغيه ينتظر خليلته، وقد تأخرت عليه ـ فما هى إلا لحظات حتى أقبلت عليه، فلما رآها خرَّ ساجدًا لها تعظيمًا، ولم ينهض من تلك السجدة الباطلة إلا وهو محمول على الأكتاف قد فارق الحياة فنعوذ بالله من سوء الخاتمة.

(١) من شريط قصص واقعية عن بعض الموتى لمجموعة من الدعاة.

www.ibtesama.com

• إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم •

قال الإمام ابن القيم: وقد أجمع السائرون إلى الله أن القلوب لا تُعطَى مناها حتى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها، فيصير نفس دوائها، ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفة هواها وهواها مرضها، وشفاها مخالفته.

فإن استحكم المرض قتل أو كاد، وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه، فكذا يكون قلبه فى هذه الدار فى جنة عاجلة، لا يشبه نعيم أهلها نعيمًا البته، بل التفاوت الذى بين النعيمين كالتفاوت الذى بين نعيم الدنيا والآخرة، وهذا الأمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا، ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (الانفطار:١٣، ١٤). مقصور عل نعيم الآخرةوجحيمها فقط، بل فى دورهم الثلاثة هم كذلك ـ أعنى دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار ـ فهؤلاء فى نعيم، وهؤلاء فى جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟

وأى عذاب أشد من الخوف والهم والحزن، وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكل واد منه شعبة؟! وكل شىء تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب.

فكل من أحب شيئًا غير الله عُذب به ثلاث مرات فى هذه الدار: فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عُذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه، وأنواع من العذاب فى هذه المعارضات، فإذا سُلبه اشتد عليه عذابه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب فى هذه الدار.

وأما فى البرزخ: فعذاب يقارنه ألم الفراق الذى لا يرجو عوده، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده، وألم الحجاب عن الله، وألم الحسرة التى تقطع الأكباد، فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل فى نفوسهم نظير ما يعمل الهوام والديدان فى أبدانهم، بل عملها فى النفوس دائم مستمر، حتى يردها الله إلى أجسادها، فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر.

فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طربًا وفرحًا وأنسًا بربه، واشتياقًا إليه وارتياحًا بحبه وطمأنينة بذكره؟ حتى يقول بعضهم فى حال نزعه: واطرباه، ويقول الآخر: إن كان أهل

www.ibtesama.com

الجنة فى مثل هذا الحال إنهم لفى عيش طيب، ويقول الآخر: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها، وما ذاقوا أطيب ما فيها. ويقول الآخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيف، ويقول الآخر: إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة(١).

(٩) سوء الظن بالله:

قال ﷺ: «إن الله تعالى يقول: أنا عند ظن عبدى بى إن خيراً فخيراً وإن شراً فشر»(٢).

وقال ﷺ: «لايموتن أحدكم إلا وهو يُحسن الظن بالله»(٣).

فمن أساء الظن بالله واعتقد أن الله لن يرزقه حُسن الخاتمة فإن الله لن يرزقه حُسن الخاتمة لأن سوء ظنه بالله (جل وعلا) هو الذى جعله من الخاسرين.

قال الإمام ابن القيم: إن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به، فإن المسىء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس، فظن به ما يناقض أسماءه وصفاته ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم، كما قال الله تعالى: ﴿يُعَذِّبَ الْمُنَـٰفِقِينَ وَالْمُنَـٰفِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَـٰتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ (الفتح:٦). وقال الله تعالى لمن أنكر صفة من صفاته ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ (فصلت:٢٣)(٤).

فيجب على العبد أن يُحسن الظن دائمًا بالله (عز وجل) فالله أولى بكل جميل.

عن أنس أن النبى ﷺ دخل على شاب وهو فى الموت، فقال له: «كيف تجدك؟»، قال: أرجو الله وأخاف ذنوبى، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجوه وأمّنه مما يخاف»(٥).

---

(١) الداء والدواء/ (ص: ٩٩ ـ ١٠٠).

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٠٥).

(٣) أخرجه مسلم (١٧/ ٢٠٩) صفة الجنة.

(٤) الداء والدواء/ (ص: ١٧١).

(٥) رواه ابن ماجه (٤٢٦١) الزهد ـ وحسنه الألبانى فى الصحيحة (١٠٥١).

www.ibtesama.com

(١٠) الإصرار على الذنوب والمعاصى:

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: ومن عقوباتها (أى: الذنوب والمعاصى) أنها تخون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه، فإن كل أحدٍ يحتاج إلى معرفة ما ينفعه وما يضره فى معاشه ومعاده.

إلى أن قال: هذا وثَمَّ أمرٌ أخوف من ذلك وأدهى منه وأمر، وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار، والإنتقال إلى الله، فربما تعذَّر عليه النطق بالشهادة، كما شاهد الناس كثيراً من المحتضرين أصابهم ذلك حتى قيل لبعضهم: قل: لا إله إلا الله... فقال: آه آه لا أستطيع أن أقولها.

وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله فقال: شاه رخ[١] غلبتك ثم قضى ـ أى مات ـ.وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله فقال:

يا رُب قائلة يومًا وقد تعبت كيف الطريق إلى حَمَّام منجابِ

ثم قضى... وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله فجعل يهذى بالغناء ويقول: تاتنا تنتنا حتى مات...وقيل لآخر ذلك فقال: ما ينفعنى ما تقول ولم أدع معصية إلا ركبتها ؟ ثم مات ولم يقلها...وقيل لآخر ذلك فقال: ما يغنى عنى وما أعرف إنى صليت لله صلاة؟ ولم يقلها...وقيل لآخر ذلك فقال: أنا كافر بما تقول ولم يقلها وقضى...وقيل لآخر ذلك فقال: كلما أردت أن أقولها ولسانى يمسك عنها[٢].

وقالت عائشة (رضى الله عنها): كان النبى ﷺ يُكثر أن يقول:«يا مقلب القلوب، ثبت قلبى على طاعتك» فقلت: يا رسول الله إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء فهل تخشى؟ قال: «وما يؤمننى يا عائشة وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الجبار إذا أراد أن يقلب قلب عبده قلبه»[٣].

* (قال العلماء): وإذا كانت الهداية إلى الله مصروفة، والإستقامة على مشيئته موقوفة، والعاقبة مغيبة، والإرادة غير مغالبة، فلا تعجب بإيمانك وعملك وصلاتك وصومك وجميع قُربك، فإن ذلك وإن كان من كسبك فإنه من خلق ربك وفضله الدار عليك وخيره، فمهما افتخرت بذلك، كنت كالمفتخر بمتاع غيره، وربما سُلب عنك فعاد

(١) اسم لأحجار الشطرنج.

(٢) الداء والدواء/ (ص: ١٤٢ ـ ١٤٣).

(٣) رواه ابن أبى شيبة وأحمد وابن أبى عاصم بإسناد صحيح.

www.ibtesama.com

قلبك من الخير أخلى من جوف البعير، فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم، فأصبحت وزهرها يابس هشيم، إذ هبت عليها الريح العقيم، كذلك العبد يمسى وقلبه بطاعة الله مشرق سليم، فيصبح وهو بمعصيته مظلم سقيم، ذلك فعل العزيز الحكيم الخلاق العليم.

* (روى) النسائى «عن عثمان رضى الله عنه قال: «اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث إنه كان رجل ممن كان قبلكم تعبَّد، فعلقت به امرأة غوية فأرسلت إليه جاريتها فقالت له: إنا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها فطفقت الجارية كلما دخل بابًا أغلقته دونه حتى أفضت إلى امرأة وضيئة ـ أى جميلة ـ عندها غلام، وباطية خمر، فقالت: إنى والله ما دعوتك للشهادة ولكن دعوتك لتقع علىَّ، أو تشرب من هذه الخمر كأسًا أو تقتل هذا الغلام، قال: فاسقينى من هذا الخمر فسقته كأسًا قال: زيدينى، فلم يزل يشرب حتى وقع عليها وقتل الغلام. فاجتنبوا الخمر فإنه والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر، إلا ليوشك أن يخرج أحدهما صاحبه»[1].

قال الشيخ صدِّيق حسن خان: «فطول الإلف بالمعاصى يقتضى تذكرها عند الموت، وعودها فى القلب وتمثلها فيه، وميل النفس إليها وإن قبض روحه فى تلك الحالة يُختم له بالسوء.

عن عبد العزيز بن أبى رواد قال: «حضرت رجلاً عند الموت يلقن الشهادة لا إله إلا الله فقال فى آخر ما قال: هو كافر بما تقول، ومات على ذلك قال: فسألت عنه فإذا هو مدمن خمر. وكان عبد العزيز يقول: «اتقوا الذنوب فإنها هى التى أوقعته»[2].

شخصية مرموقة دائمة السفر إلى بلاد جنوب شرق آسيا كل صيف وبالأخص إلى دولة «تايلاند» فقد كان صاحب القصة متزوجًا ولديه أطفال وعمره لم يناهز الثلاثين عامًا، إلا أنه مازال على عادته القديمة لا يفكر إلا فى شهوته وملذاته سواء أكانت فى الحلال أم فى الحرام. لقد سافر من دولة الكويت ووجهه أبيض من بياض البيض، وكله شباب وقوة، وفى إحدى الليالى الساهرة هناك تعرّف على راقصة عاهرة فرافقها إلى إحدى الشقق، وكان بإنتظاره «ملك الموت»، فما إن قرب منها وجاءت اللحظة الحاسمة... نادى المنادى: الرحيل... الرحيل.. فقبضه ملك الموت، ورجع إلى بلده

(١) التذكرة/ للقرطبى (١/ ١٠٨ ـ ١٠٩) ط. دار الصحابه.

(٢) جامع العلوم والحكم/ (ص: ١٧٣).

www.ibtesama.com

محملاً بالتابوت، وفُتح التابوت، وإذا بالمفاجأة الكبرى... وهى أن وجهه أصبح لونه أسود من سواد القار»[١].

* وهذه قصة ثلاثة من الأصدقاء يجمع بينهم الطيش والعبس والمجون، كانوا يستدرجون الفتيات الساذجات بالكلام المعسول، ثم ينقلبون إلى ذئاب لا ترحم توسلاتهن.

يقول الراوى: ذهبنا كالمعتاد للمزرعة، وكان كل شىء جاهزًا،... الفريسة لكل واحد منَّا، الشراب الملعون، شىء واحد نسيناه، وهو الطعام، وبعد قليل ذهب أحدنا لشراء العشاء بسيارته، وكانت الساعة السادسة تقريبًا عندما انطلق، ومرت الساعات دون أن يعود، وفى العاشرة شعرت بالقلق، فانطلقت بسيارتى أبحث عنه، وفى الطريق شاهدت بعض ألسنة النار تندلع على جانب الطريق.

وعندما وصلت فوجئت بأنها سيارة صديقى، والنار تلتهمها، وهى مقلوبة على أحد جانبيها، أسرعت كالمجنون أحاول إخراجه من السيارة المشتعلة، وذهلت عندما وجدت نصف جسده قد تفحم تمامًا، لكنه كان ما يزال على قيد الحياة، فنقلته إلى الأرض، وبعد دقيقة فتح عينه وأخذ يهذى: النار.. النار فقررت أن أحمله بسيارتى وأسرع به إلى المستشفى ولكنه قال بصوتٍ باك: لا فائدة، لن أصل فخنقتنى الدموع، وأنا أرى صديقى يموت أمامى.

وفوجئت به يصرخ: ماذا أقول له ؟ نظرت إليه بدهشة وسألته من هو ؟ قال بصوت كأنه قادم من بئرٍ عميق: الله.

أحسست بالرعب يجتاح جسدى، وفجأة أطلق صديقى صرخة مدوية، ولفظ آخر أنفاسه[٢].

(١١) نسيان الآخرة وعدم ذكر الموت:

إن الذى ينسى الموت ولا يذكره يُعاقَب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة وترك الرضا بالكفاف والتكاسل فى العبادة.

فمن لم يذكر الموت لن يستعد له أبدًا ولذلك تجده غافلاً عن طاعة الله لأن الموت لا

(١) الوقت عمار أو دمار/ جاسم محمد المطوع (٢/ ٨٧).

(٢) «أخى الشاب إلى أين تسير ؟» / محمد أمين مرزا (ص: ١٠ ـ ١٢).

www.ibtesama.com

يخطر له على بال... أما الذى يذكر الموت فإنه يسارع إلى طاعة الله (عز وجل) وكأنه يموت بعد ساعة فلا تكاد تمر لحظة من حياته إلا وهو ذاكرٌ لله.

دخل الحسن البصرى على مريض يعوده فوجده فى سكرات الموت فنظر إلى كربه وشدة ما نزل به فرجع إلى أهله بغير اللون الذى خرج به من عندهم فقالوا له: الطعام يرحمك الله فقال: يا أهلاه عليكم بطعامكم وشرابكم فو الله لقد رأيت مصرعًا لا أزل أعمل له حتى ألقاه.

أخى الحبيب: إن من جعل الموت نُصب عينيه بادر بالأعمال الصالحة حتى إذا وافته المنية مات على طاعة الله.

(١٢) الظلم:

فإن الظالم إن لم يتحلل من تلك المظالم ـ بأن يرد إلى كل واحد مظلمته ـ فإن الله لا يوفقه أبدًا إلى حُسن الخاتمة بل هو أقرب ما يكون لسوء الخاتمة لأن دعوة المظلوم مستجابة وإن كان كافرًا فلو أن مسلمًا ظلم أى إنسان فقام ودعا عليه بأن يُختم له بسوء الخاتمة لاستجاب الله دعاءه.

قال ﷺ: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته. وإن لم تكن له حسنات، أخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه»(١).

وقال ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم فإنها تُحمل على الغمام يقول الله: وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين»(٢).

وقال ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرًا، فإنه ليس دونها حجاب»(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود:١٠٢)(٤).

وقال ﷺ: «من اقتطع حق امرىءٍ مسلمٍ بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه

(١) أخرجه البخارى وأحمد عن أبى هريرة.

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير والضياء عن خزيمة بن ثابت ـ صحيح الجامع (١١٧).

(٣) رواه أحمد وأبو يعلى والضياء عن أنس ـ صحيح الجامع (١١٩).

(٤) أخرجه البخارى (٨/ ٤٦٨٦) ـ ومسلم (٢٥٨٣).

www.ibtesama.com

الجنة» فقال رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ فقال: «وإن قضيبًا من أراك»[١].

وقال ﷺ: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح فى النار»[٢].

• وبالمثال يتضح المقال •

وها أنا أسوق لحضراتكم بعض النماذج لسوء الخاتمة لنأخذ منها العظة والعبرة ولنحذر من الوقوع فى مثل ما وقعوا فيه من الكفر والكبر والتكبر والظلم والعدوان.

• والجزاء من جنس العمل •

وها هى خاتمة الشقاء لقاتلة يحيى بن زكريا (عليهما السلام):

* قال الحافظ ابن كثير: «روى الحافظ ابن عساكر فى «المستقصى فى فضائل الأقصى» عن قاسم مولى معاوية، قال: كان ملك هذه المدينة ـ يعنى دمشق ـ هدَّاد بن هدار، وكان قد زوّج ابنه بابنة أخيه أربل ملكة صيدا،.. وكان قد حلف بطلاقها ثلاثًا ثم إنه أراد مراجعتها، فاستفتى يحيى بن زكريا فقال: لا تحل لك حتى تنكح زوجًا غيرك، فحقدت عليه وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا؛ وذلك بإشارة أمها، فأبى عليها، ثم أجابها إلى ذلك، وبعث إليه ـ وهو قائم يصلى فى مسجد جيرون ـ من أتاه برأسه فى صينية، فجعل الرأس يقول: لا تحل له، لا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره، فأخذت المرأة الطبق، وحملته على رأسها، وأتت به أمها، فلما تمثلت بين يدى أمها خسف بها إلى قدميْها،ثم إلى حقويها، وجعلت أمها تولول، والجوارى يصرخن ويلطمن وجوههن، ثم خسف بها إلى منكبيها، فأمرت أمها السيّاف أن يضرب عنقها لتتسلى برأسها، ففعل، فلفظت الأرض جثتها عند ذلك»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٧) كتاب الإيمان.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨١) كتاب البر.

(٣) البداية والنهاية (٢/ ٥١).

www.ibtesama.com

• فخسفنا به وبداره الأرض •

«أخرج ابن أبى حاتم بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: كان موسى يقول لبنى إسرائيل: إن الله يأمركم بكذا، حتى دخل عليهم فى أموالهم، فشقّ ذلك على قارون، فقال لبنى إسرائيل: إن موسى يقول: من زنى رُجم، فتعالَوا نجعل لبغى شيئًا حتى تقول: إن موسى فعل بها، فيُرجم فنستريح منه، ففعلوا ذلك فلما خطبهم موسى قالوا له: وإنْ كنت أنت؟ قال: وإن كنتُ أنا. فقالوا: قد زنيت، فجزع، فأرسلوا إلى المرأة، فلما جاءت عظم عليها موسى، وسألها بالذى فلق البحر لبنى إسرائيل إلا صدقت، فأقرت بالحق، فخرّ موسى ساجدًا يبكى، فأوحى الله إليه: إنى أمرت الأرض أن تطيعك فأمرها بما شئت، فأمرها، فخسفت بقارون ومن معه»[١].

قال ابن كثير: خُسف به إلى الأرض السابعة.

* قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ (القصص:٨١).

قال قتادة: ما أغنى ماله وما جمعه، ولا خدمه لا حشمه، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله، ولا كان هو فى نفسه منتصراً لنفسه، فلا ناصر له من نفسه ولا غيره[٢].

• نهاية فرعون •

وها هى خاتمة الشقاء للطاغية الذى ضُرب المثل بطغيانه إنه فرعون الذى قال «أنا ربكم الأعلى»... إنه المتكبر الذى قال: «أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى» فأجراها الله من فوقه... والجزاء من جنس العمل.

* عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لى جبريل: لو رأيتنى وأنا آخذ من حَمَاء البحر فأدسه فى فىّ فرعون، مخافة أن تدركه الرحمة»[٣].

---

(١) «فتح البارى» (٦/ ٥١٦ ـ ٥١٧).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٦٧).

(٣) صحيح: رواه أحمد فى «مسنده»، والحاكم فى «المستدرك» عن ابن عباس، ورواه الترمذى، وابن جرير، والخطيب فى «تاريخه»، وصححه الألبانى فى «صحيح الجامع» رقم (٤٣٥٣)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٠١٥).

www.ibtesama.com

وهكذا يكون العقاب لكل من حارب الله ورسوله ﷺ... فها هو فرعون الذى تطاول وعلا فى الأرض يهوى فى الأعماق ويمتلىء فمه بطين البحر.

• ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ •

وها هو أبو لهب (عليه من الله ما يستحقه) الذى عادى النبى ﷺ أشد العداء وحارب دعوته أشد المحاربة فلما جاء اليوم الذى مات فيه وإذا بالذل والهوان يلحقه ويُختم له بخاتمة أهل الشقاوة.

قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: رماه الله بالعدسة فقتلته، فلقد تركه ابناه بعد موته ثلاثًا، ما دفناه حتى أنتن، وكانت قريش تتقى هذه العدسة، كما تتقى الطاعون، حتى قال لهم رجل من قريش: ويحكما، ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن فى بيته لا تدفنانه؟ فقالا: إنا نخشى عدوة هذه القرحة. فقال: انطلقا فأنا أعينكما عليه، فوالله ما غسلوه إلا قذفا بالماء عليه من بعيد ما يدنون منه، ثم احتملوه إلى أعلى مكة، فأسندوه إلى جدار، ثم رجموا عليه بالحجارة.

• ما لك... أقماك الله •

عن أبى أُمامة قال: رمى عبد الله بن قمئة رسول الله ﷺ يوم أُحد، فشج وجهه وكسر رباعيته، فقال: خذها وأنا ابن قمئة، فقال رسول الله ﷺ، وهو يمسح الدم عن وجهه: «ما لك، أقماك الله».

فسلط الله عليه تَيس جبل فلم يزل ينطحه حتى قطَّعه قطعةً قطعةً.

قال ابن حجر: ومجموع ما ذكر فى الأخبار أنه شُج وجهه، وكسرت رباعيته، وجرحت وجنته وشفته السفلى من باطنها، ووهى منكبه من ضربة ابن قمئة وجحشت ركبته[1].

وعند ابن هشام من حديث أبى سعيد الخدرى: أن عبد الله بن قمئة جرحه ـ أى الرسول ﷺ فى وجنته، فدخلت حلقتان من حلق المِغْفَرِ فى وجنته ﷺ.

فماذا كان جزاء هذا الشقى؟!

---

(١) فتح البارى (٧/ ٤٣١).

www.ibtesama.com

قال عبد الرحمن بن زيد بن جابر: إن الذى رمى رسول الله ﷺ بأُحد، فجرحه فى وجهه، قال: خذها منى وأنا ابن قمئة، فقال: «أقماك الله».. قال فانصرف إلى أهله، فخرج إلى غنمه فوافاها على ذروة جبل، فدخل فيها فشد عليه تيسها فنطحه نطحة أرداه من شاهق الجبل فتقطع.

• هكذا ينتقم الله لأوليائه •

ذكر الإمام ابن القيم فى كتابه «الروح» عن القيروانى أنه ذكر فى كتاب «البستان» عن بعض السلف، قال: كان لى جار يشتم أبا بكر وعمر رضى الله عنهما، فلما كان ذات يوم أكثر من شتمهما فتناولته وتناولنى فانصرفت إلى منزلى وأنا مغموم حزين فنمت وتركت العَشاء فرأيت رسول الله ﷺ فى المنام، فقلت: يا رسول الله! فلان يسب أصحابك، قال: مَن أصحابى؟ قلت: أبو بكر وعمر، فقال: «خذ هذه المدية[١] فاذبحه بها»، فأخذتها فأضجعته وذبحته ورأيت كأن يدى أصابها من دمه، فألقيت المدية وأهويت إلى الأرض لأمسحها فانتبهت وأنا أسمع الصراخ من نحو داره، فقلت: ما هذا الصراخ؟ قالوا: فلان مات فجأة!، فلما أصبحنا جئت فنظرت إليه فإذا خط موضع الذبح!![٢].

• إن أخذه أليمٌ شديد •

أقيم حفل راقص بمناسبة تقاعد بعض كبار الضباط الأتراك، وكان هذا الحفل الماجن فى قاعدة بحرية حضره كبار جنرالات تركيا وجنرالات من أمريكا وضباط كبار من إسرائيل، وراقصات من تركيا وراقصات إسرائيليات.. وبدأ الحفل الماجن بالرقص، ثم تقدم جنرال تركى إلى ضابط تركى صغير آمرًا له أن يتلو شيئًا من القرآن، وبعد ذلك أمره أن يفسر شيئًا من القرآن، فردّ الضابط بأنه لا يعرف تفسير الآيات وهنا قام الجنرال التركى بتمزيق المصحف ووضعه تحت قدميه.. وتحدّى العزيز القادر الذى يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾.

هذا التمزيق فأين الحفظ، وخرج الضابط التركى الصغير مهرولاً من القاعدة خائفًا

---

(١) المدية: السكين.

(٢) «نهاية الظالمين» ص (١٥٨ ـ ١٥٩)، وكتاب «الروح» لابن القيم.

www.ibtesama.com

من انتقام الله وهو شاهد العيان الوحيد الذى قصّ ما حدث، وما إن أتم هذا الزنديق المارق كلماته الفجر حتى هبت نيران عظيمة تلتهم القاعدة بمن فيها، ثم ينشق البحر ليغيب فى باطنه تلك القاعدة.. ولم تستطع فرق الإنقاذ من الدول الثلاث أن تنتشل جثة كافر واحد ممن غيّبهم البحر لكفرهم وعتوهم وبعدها بقليل يبدأ زلزال تركيا المدمر المصحوب بالإعصار.. ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود:١٠٢)[١].

• عبرة لمن يعتبر •

فى الخمسينيات وفى كلية الزراعة جامعة عين شمس بالقاهرة وقف أحد الطلبة، ممسكًا بساعته محدقًا نظره فيها، وهو يصرخ قائلاً: «إن كان الله موجودًا فليمتنى إذًا بعد ساعة، وكان مشهدًا عجيبًا شهده جمهرة من الطلاب والأساتذة، ومرّت الدقائق عجلى، وحين أتممت الساعة دقائقها انتفض الطالب يزهو بتحد، وهو يقول لزملائه: أرأيتم لو كان الله موجودًا لأماتنى، وانصرف الطلاب، وفيهم من وسوس له الشيطان، وفيهم مَن قال: إن الله أمهله لحكمة، وفيهم من هزّ رأسه وسخر منه! أمّا الشاب المذكور، فذهب إلى أهله مسرورًا، خرج يتمطى، ودخل منزله، فإذا والدته قد أعدّت مائدة الغذاء، وإذا والده قد أخذ مكانه على المائدة ينتظره، فهرع الولد مسرعًا إلى المغسلة، ووقف أمامها يغسل وجهه ويديه، ثم ينشفهما بالمنديل، وبينما هو كذلك، إذ به يسقط على الأرض جثة لا حراك بها!!

نعم لقد سقط ميتًا، وأثبت الطبيب فى تقريره، أن موته كان بسبب الماء الذى دخل فى أذنه!

قال الدكتور عبد الرزاق نوفل ـ رحمه الله ـ: «أبى الله إلا أن يموت كما يموت الحمار».

فالحمار إذا دخل الماء فى أذنه مات من ساعته!![٢].

* * *

(١) نقلاً من سكب العبرات (١/ ٥١٢) د. سيد حسين.

(٢) انظر: «المجلة العربية» عدد صفر (١٤١٣)، و«نهاية الظالمين» ص(١٥٩ ـ ١٦٠).

www.ibtesama.com

انتهى الجزء الأول

ويليه الجزء الثاني قريبا

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com